الجَدَّة حَمِيدة

مجموعة قصصية

حسن الجوخ

المؤلف : حسن الجوخ
الكتاب : الجدة حميدة
الناشر : نادى القصة
لوحة الغلاف : من وحى الأساطير ١٩٩٨
الطبعة الأولى : ٢٠٠١ م
رقم الإيداع : ٢٠٠١/٨٠٦٨

نادى القصة
٦٨ شارع قصر العينى القاهرة ت : ٧٩٤١٩٢٩


الكتاب
الفضى
نادى القصة



الإهـــــداء

إلى رفاق الطفولة

..وأصدقاء الصبا:

«إبراهيم الشرقاوى،

عبد الرحمن أبو جبر

الحاج/ أحمد الجوخ

وإلى أهالى «كفر عزام»

.. والجدة حميدة طبعا

حسن

• **تنويــه :**

أسماء الشخصيات، والأحداث فى قصص هذه المجموعة من نسج الخيال، ووفـــقا للبناء الفنى. وأى تشابه فى الأســـماء، أو الأحداث مع الواقع هو محض مصادفة.

المؤلـــف

الجدة حميدة



منذ الصغر وأقدامنا الخضراء تحفظ شوارع قريتنا، حاراتها، أزقتها أجرانها، ترابها المختلط بروث الماشية المندى بماء الحموم، وغسيل الملابس، نخيلها، أشجار التوت والجميز والصفصاف، حواف مصارفها، ترعتها ، مدارات سواقيها، دورها العوراء الرطبة الصامتة، أشياء تعطيك إحساساً مبهماً، إن هنا حياة، حياة بلونها الأصيل.

والجدة حميدة واحدة من قريتنا ، لفتت منذ الصبا أنظارنا بطولها الفارع ورأسها الكبيرة ذات الأنف الشامخ، وجه مدور مثل رغيف ريفى طازج، فكأنما سلطت عليه أضواء عكسته إلى ملايين الوجوه، تمازجت فى وجه واحد، خط عليه الزمن بضعة خطوط خفيفة، عيناها صقريتان، تتوغلان فى أعماق البشر فتقرأ طواياهم، جبين وضاء بنور الإيمان، شعر طويل مفلفل، تلمه فى ضفيرتين تنطرهما وراء ظهرها، مجدول فى إحداهما دوبارة معقودة على مفتاح معدنى صدىء، أذنان كبيرتان إلى

حد ما، صدغان بيضاوان ناضران، وفم صغير مكتنز الشفتين، تفوح منه رائحة شبع أقرب إلى القناعة، على أديم الوجه سمت تراثي الطابع، وكأنه وجه من التراث ، ينبغى الحفاظ عليه كتحفة أثرية قيمة، وجه ترى فيه الإنسان علي حقيقته ، يشف عن صدق إحساس يقظ محب للحياة بما فيها من مثيرات وتناقضات وملذات وآلام ، وجسد عفى يمتلىء برغبة فتية فى الحياة.

تعيش الجدة حميدة فى حالها ، وحيدة فى دار عتيقة من الطوب اللبن، مرسوم على بابها الصغير حصان يعلوه فارس شاهرا سيفه، وجَمل يحمل أشياء ، وأعلى الحلق حدوة قديمة صدئة.. دارها حجرة لنومها مفروشة بحصيرة مهترئة الأطراف، فوقها وسادة يتيمة ضامرة، وغطاء صوفى خشن، لصق الحائط صندوق خشبى كبير، صدأ غلافه الصاجى فبهتت نقوشه فى أجزاء كثيرة، تعلوه قليلا مرآة مضببة، مثبتة على الحائط، ومحبش حولها بالطين، وصحن دار يحوى طبلية مسندة على الجدار، بجانب سلم نقالى يوصل للسطوح، وبضع أوان نحاسية مكفأة علي قليل من قش الأرز الراقد على قبة الفرن، بالقرب منه يقبع زير فخارى صغير فوق مزيرته الأسمنتية، عليه غطاء خشبى فوقه كوز من الصفيح، وبجانب «الكانون» صحنان، أحدهما مقعور والآخر مسطوح، وقلة موضوعة فى صنية

صغيرة نحاس، وزريبة محدودة المساحة، تستغلها الجدة حميدة فى تربية الدواجن، والدار عموما مليئة بالشروخ، آيلة للسقوط.

والجدة حميدة يعرف أهالى القرية أن لها فى محصول كل زرعة، وفى كل ذبيحة نصيب، دائما يعملون حسابها مع الحلاق واللحاد وإمام المسجد الضرير كشأن أهل الريف.

والحقيقة أن ما تحصل الجدة حميدة عليه يكفيها ويزيد، ولكنها - والحق يقال - لا تكل من الشغل فى حقول القرية فى مواسم الحصاد نظير أجر زهيد.. شملولة عفية، تقود الشغيلة فى جوقة عمل لا تهدأ، تدندن فى البداية بمطلع أغنية معروفة.. ثم يتدرج صوتها فى الارتفاع رخيما ناعما، يلامس مشاعر طمرها الفقر والقهر فى أعماق السيدات والبنات والرجال والشباب، فتنطلق الحناجر تردد وراءها كلمات الأغنية فى حماس، تتجاوب والفضاءات الواسعة، تراقص أغصان الأشجار ، وتغازل خرير الجداول في الغيطان.

أما في غير مواسم الحصاد تخدم في دور القرية ، كل يوم فى دارّ، تساعد زوجات الأعيان فى الخبيز، غسل الهدوم، ودهك الحيطان بالطمى والطين، تجلس قدام الفرن بالساعات، تزرق الرغيف بمهارة، تخاطب أحيانا الجالسات بجوارها مفتخرة بمهارتها: ولا كل من ركب الحصان خيال، ولا كل من قعدت

قدام الفرن خبازة.

والحق أن كل من يتأمل شخصية الجدة حميدة يلحظ شيئا لافتا للنظر، فبرغم عمرها الطويل، وما نعرفه عن تقلبات الأمزجة والنفوس، فقد استطاعت أن تحدد مسافات متساوية ، وعلاقة متوازية بينها وبين مختلف عائلات القرية بكياسة وحكمة يحسدها عليها الناس، فكل عائلات القرية تكن لها قدرا وافرا من الحب والمودة والإشفاق، أحيانا تخدم فى دور عائلتين متشاجرتين في وقت واحد، فتسمع الخطير من الأسرار ، بل تشاهد بعينى رأسها تجهيزات المشاجرات، فلا تفوه بكلمة، وكأن ماسمعته عند أولئك، أو ما شاهدته عند هؤلاء دفن فى بئر بلا قرار.

أحيانا ترتدى الجدة حميدة ثيابا غالية أنيقة، تبرز مفاتن جسدها المتماسك، وأحيانا أخرى تلبس ملابس رخيصة، ممزقة من تحت إبطها وعند الرقبة، ومن على الظهر وأسفل الركبتين، تناقض ربما بدا غريبا، لكنه لا يشغل بالها، ولايعكر صفوها، وإن علق أحد ترد علي الفور: اللى يعرف أبويا يروح يقول له».

ومن ذا الذي يعرف لهذه الجدة أبا! إنها مثل نبات برى!.. قطعت من شجرة سرحت جذورها فى باطن الأرض منذ آلاف السنين.

وأنا طفل صغير تتفتح مداركه علي الحياة ، كم شاكسنى السؤال فانتهزت فرصة رضاء جدتى «مسعدة» عنى، لبدت تحت جناحها وقذفت في وجهها المجعد بالسؤال:

– بنت مين الجدة حميدة يا جدة؟!

بلعت جدتى ريقها بصعوبة، فنفرت عروق خضراء فى رقبتها المكرمشة، جمدت عيناها العميقتان لحظة، وشردت عني لحظات ، فران صمت متحفز علي المكان، مصمصت شفتيها الجافتين.. ثم ندت عنها زفرة حارة طويلة، خلتها حرقت ألف شيطان فقلت:

ـ غلبانة الجدة حميدة يا جدة، مش كده؟

فردت على الفور:

ـ استغفر الله يا ضنايا، ما غلبان إلا الكافر وابن الحرام.

وأردفت بصوت خفيض، كأنها تحدث نفسها:

ـ عينى عليها «عُقب دار» مات ناسها ، وخليت عليها الدار، والدار نار من غير الأهل والعزوة.

ـ يعنى إيه يا جدة؟!

زمت بين حاجبيها الرقيقين، وشملتنى بنظرة تشى ببوادر غضب:

ـ اسكت، ربنا عايز كده.

حينما كبرت، وانفرد طولى سمعت روايات عديدة من أهالي

قريتنا عن عراقة أصلها، ورفعة حسبها، دون أن تفلح رواية واحدة فى إرواء فضولى.. حتي صارت شخصية الجدة حميدة - بمرور الأيام - أسطورة مجسدة بيننا، تمارس حضورها بقصد، أو بغير قصد، يتفاءل أهالي قريتنا بمشاركتها مناسباتهم السعيدة، فتكون أولى المدعوات، تحضر، تقوم باللازم، تزغرد... وفى لحظة تجل تخطف شالا من فوق أحد الرءوس، تلفه حول وسطها بمعلمة، تحركه حتى تنضبط عقدته علي جانبها الأيمن، ترخيه قليلا على ردفيها، وتروح ترقص سعيدة، بل تراقص عددا من الرجال والنساء على دقات الطبلة وإيقاعات كفوف الشباب والبنات، حتي يندى جبينها ، ويلمع بالعرق في عز الشتاء.. وقبل أن تنصرف تدس في صدر صاحبة المناسبة النقوط وتقول فى تلعثم : «ألف مبروك» وتهرول خارجة، تتردد فى أذنيها دقات الطبلة وإيقاعات التصفيق كأصداء حالمة .

أما فى المناسبات غير السعيدة - وما أكثرها في قريتنا - يجدها أهل القرية أولى الحاضرات تواسى، تربت بيد حانية علي الظهور والأكتاف ، وعيناها تترقرقان بالدموع، تصر أن تشاطر المصاب آلامه بالجهد أو المال، لم يجرب عليها الكذب، تؤدي ما عليها من فروض الدين بالتمام والكمال، وكانت دائما الملاذ، تستر علي المراهقات الطائشات ، وتعالج المسألة بطريقتها

الخاصة فى منتهى الكتمان، موضع ثقة الرجال والنساء والشباب والبنات، يهرعون إليها، فتسدى لهم النصائح، وتحل كثيرا من المشكلات ببساطة ودقة ينمان عن ذكاء فطرى لماح، وخبرة سبرت أعماق الحياة.

قبلما يحدث للجدة حميدة ما حدث بيوم واحد، رأيتها في الصباح عند الدحديرة أمام الجامع الكبير، تدق قدماها أرض الوسعاية فى خطوات واثقة.. صبحت على تجار المواشى الجالسين علي مصطبة إبراهيم أبى إسماعيل، يدخنون «الجوزة» يرتشفون الشاى، ويساومون فى آن، ولماوجدتهم لم يردوا صباحها لعنتهم بصوت عال، وواصلت سيرها فى اتجاه دار الحاج «إبراهيم أبو أمين».

قدام دار محمد أبو حسانين استوقفت ـ كعادتها مع الأطفال ـ حامد بن عبد الونيس، تألقت عيناها بفرح، اقتربت منه، ربتت على ظهره وكتفيه وبطنه، وسرعان ما امتدت يدها بين فخذيه، تحسست شيئا تحت الجلباب الجديد :

ـ حمامتك كبرت يا عكروت

مد الولد كلتا يديه فى خجل، وأسدل طرف جلبابه حتي لامس قدميه فتركته، وهى مستغرقة فى ضحك متقطع.. وعلى بعد خطوات كان الحاج «على أبو موسى» يضرب كفا بكف

ضاحكا، ثم علق قائلا:

- جدتكو حميدة ضهرها نقح عليها يا ولاد .

ثم استحث الخطا ليلحق بحمارته ، التى تعرف طريقها إلى الغيط ، وهى تئن تحت ثقل غبيط السباخ، وفوقه القلة وصرة الأكل.

فى ضحى نفس اليوم شفتها، وأنا سارح إلي الغيط، تلقط سنابل القمح من على السكك والمفارق في مقطف من الخوص، وتلم روث البهائم فى طست قديم من الصاج، ثم تضم أذنى المقطف، تقبض يمناها عليهما بقوة، تحط الطست على رأسها فوق حواية لفلفتها من خرق بالية، يظل الطست معتدلاً فوق الرأس، لا يهتز ولا يميل، تتطوح يسراها تضرب فى حرية نسمات الريف، وهى تخطو فى دلال عجوز، فيرفع الشيخ عوض الله - عريف كُتاب قريتنا - عينيه عن الكتاب والصبيان تلتمع عيناه العمشاوان.. يبربش ، يرطب شفته السفلى بلسانه كعادته ثم يقول" سبحان الخالق الوهاب.. له فى خلقه شئون.

فى ظهر نفس اليوم، وفى عز نقرة القيلولة رآها نفر من أهالى القرية، تجوس بين المزروعات، علي راحتها، تنتقى أجود ما جادت به الأرض، وتضعه في حجرها، فتتعرى ساقاها، ويظهر طرف قميصها أعلى الركبتين أحمر مشرشبا، يبرز جمال

ساقين مخروطتين فى لون الحليب.

فى تلك اللحظة تجرى الدماء ساخنة في عروق الشباب، تستيقظ الخصوبة بين الترائب والأصلاب، تتعالى الصيحات والآهات فى سعادة وجرأة، فترد عليهم فى ميوعة.. ثم تترك المكان فى هدوء، بعد أن تكون أفرغت ما في حجرها في مقطفها الخوص، كان والدى - يرحمه الله، ويبشبش الطوبة اللى تحت راسه - يعلق على مثل هذه المواقف بجملة واحدة، لا تتغير:

- الجوع كافر يا ناس

وكانت ترد أمى عليه، وهى تشوح بيدها فى الفراغ:

- جوع !.. دى أغنى منا، وصحتها تهد جبل.

عصر اليوم نفسه رآها عبد المقصود أبو عطية - لحاد القرية- تستوقف زينب بنت خضرة العمشة بالقرب من طلمبة الأهالى ربتت على كتفيها وظهرها، وبسرعة مباغتة مدت يدها ولمست علي صدرها الناهد، وقالت فى سعادة:

- سدرك خضّر يا مقروضة!

نكست البنت رأسها خجلى، وبسرعة تحركت مهرولة، وتركت الجدة حميدة حائرة في تحديد اتجاه سيرها.

والشهادة لله كانت الجدة حميدة تفرح ، تفرح بجد حين تزيد المياه فى الترعة، وحين تبيض الفرخة، وحين تحيض البنت.

والحقيقة أن الجدة حميدة تعرف قدماها دروب قريتنا، وحاراتها وأزقتها وأجرانها وشوارعها وسككها شبراً شبرًا، حينما ذهب الولد عبد المرضي ليلا لشراء باكو معسل لأبيه من وسط البلد اصطدم بها فى ظلام حارة حميدة، قريبا من ترب الجوامعة فزلزله رعب، سقطت روحه فى قدميه، لحظتها أخذته فى صدرها، وربتت على ظهره وكتفيه وبطنه، حس بملمس أصابعها الحانية تدثره بالطمأنينة، ذهبت معه فى الظلام الكُحل إلى الدكان واضعة يدها على كتفه ، فلبد الولد تحت إبطها، شاعرا بالونس، وسرعان ما طارت من رأسه كل حكايات الجن والعفاريت.. ثم عادا معا ، عند باب الدار تركته، ومضت تشق الظلام بخطواتها الواثقة.

قبل أذان الفجر بلحظات قام أهالي القرية مفزوعين على صوت سقوط كبير، فقد انهارت دار الجدة حميدة، وتجمع الناس ، كل ناس القرية، كل العائلات ناسين ما بينهم من خصومات وترهات ، يحملون الفوانيس والكلوبات، الرجال يشبكون أيديهم يتكاتفون في رفع الأنقاض ، الشباب يسرعون بتحطيم الأبواب المغلقة بالبلط والفؤوس ، النساء يتصايحن مدهوشات، ويرفعن أصواتهن بالعويل، الأطفال بعيون زائغة يصرخون ويبكون وسط الأنقاض وظلال الأنوار وسحابات الغبار.. توافد الأعيان

إلى دار العمدة غاضبين، يشخطون فى عامل التلفيون، يلحون أن يستعجل المطافى والإسعاف وفرقة الإنقاذ.

بعد طول بحث وجهد ومعاناة، فوجىء الجميع باختفاء الجدة حميدة تماما !.. من باب التأكد فرزوا الأنقاض مرات ومرات، لكنهم لم يصلوا إلى شىء، وجدوا دماء متخثرة، قطعا من جلد آدمي حى، أظافر ومخالب غريبة ملوثة بالدم، خصلات شعر، ثيابا ممزقة.. مرآة مهشمة، ومصحفا مفتوحا على سورة العصر .. لكن الجثة، جثة الجدة حميدة نفسها، لا وجود لها على الإطلاق فى أى جزء.

بعد ذلك بأيام أكد أحد الجيران ، أنه رأى الجدة حميدة فى زحام سوق الخميس بالشارع العمومى أمام جزارة الاتحاد، وعندما جذب ذراعها وأراد أن يكلمها لطشته كفا، ولمت عليه الخلق، فاتهموه بالجنون، في الوقت الذى كانت جدتي مسعدة تقسم للجميع أن الجدة حميدة قد غسلتها الملائكة من نهر النيل، وكفنتها فى سبعة أدراج من الحرير، وصلى عليها سيدنا الحسين، ثم دفنت في مقابر الناس الطيبين.

وتواترت الروايات والأخبار ، فمن قائل إنه رآها تبيع البخور واللبان والغوايش الفلصو قدام الطاهرة أم هاشم، وتتعامل وأصحاب محلات الميدان كما كانت تتعامل وأهالى قريتنا زمان،

ومن قائل إنه شافها تساعد الصيادين في بحيرة المنزلة، ومن قائل إنه رآها ترعى قطيعا من الأغنام بالقرب من مرسى مطروح، ومن قائل إنه شافها تتسول أمام فنادق أسوان.. حتى تخيلت أن الجدة حميدة تمارس حضورها فى كل أرجاء المحروسة.

(أغسطس ١٩٩٦م)

موسى الغريب

تبدأ بلدتنا بمقابر الشيخ علوانى، وتنتهى بسراية الخواجة سمعان القابعة بشارع الأقباط، يحدها شمالا المصرف الصغير، ويحرسها من الجنوب عرق كبير من نهر النيل، يشطرها نصفين شارع سوق الخميس، وبقية شوارعها ملتوية على شكل حركات الثعابين، تخرج منها حوارٍ وأزقة وزرائب خلفية كثيرة.

البلدة خليط من الدور الطينية وأكواخ الغاب والبوص التي تلتف حول نفسها فى تآلف غريب، أغنى أعيانها لا يملك أكثر من عشرين فدانا، ناسها أغلبهم فلاحون، يعيش بينهم الصانع والتاجر والأجير فى ترابط حميم، أولادها تمتد جذورهم إلى سابع أرض، نبتوا بين جدران قاعاتها فوق قباب الأفران، أو على التراب والحصى تحت ظلال الأشجار.

رجل واحد - فقير - جاء إلى بلدتنا من زمن غير معلوم على وجه التحديد، ربما في يوم سوق، جاء يحمل فوق كتفه خرجا مرتقا، باع للناس صناديق المعسل، وعلب السجاير والكبريت،

وبذور البصل والطماطم والفجل والجرجير حتي لوازم الخياطين.

ربح ربحا وفيرا ، أعجبه الحال، ضغطت عليه الأطماع، فمكث فى بلدتنا، يفترش أرض الجفر المجاورة لشارع السوق، يشترى ويبيع، ويعامل أهالي البلدة بكل أدب وذوق.

بعد عدد من الشهور بنى فى مكانه - دون أن يعترض أحد إشفاقا بالحال - كوخا صغيرا ، عرشه الرجل بسعف النخيل، اتخذه كدكان بسيط ، وراح يشترى بضائعه من البندر ويبيع، يتجشم مشقة السفر إلى البندر البعيد عن أولاد البلدة نظير ربح معقول.

مرت الأعوام بكثير مرها وقليل حلوها، يصرف شئونه بحكمة واضعا فى الاعتبار تقلبات الأحوال ومفاجآت الأيام ، قبل أن يخطو يحسب بدقة الخطوات، ويقيس مختلف الأبعاد، بهذا الحرص، وبفضل ما اتصف به من صبر وحكمة تنامى رأس ماله، وانتعشت أحواله، بعد عرق ومعاناة شارك أحد تجار الغلال الكبار، فازدادت أحواله انتعاشا، ووسْع الله عليه.

رويدا رويدا توثقت العلاقات بينه وبين رجال البلدة ، ضاق الكوخ عليه فبنى فى المكان نفسه - بدلا من الكوخ المتواضع - بالطوب الأحمر دارا واسعة جميلة، تحتها دكان ببابين.. وسرعان ما شمخت داره بين الدور ، تزوج أخت العمدة ، التى

فاتها القطار، بعد أسبوع واحد كتبت له توكيلا بالتصرف فيما يخصها من عقارات وأطيان.

فترة صعيبة عاشاها – هو زوجته – في كابوس التردد بين عيادات الأطباء والمشعوذين، جربا العديد من الوصفات البلدية حتى أنجبا ولدا أسمياه يوسف إعزازا لاسم أبيه ـ يرحمه الله ـ صار الرجل من الأعيان، أصبح يرتدى جلبابا من الصوف ، يزين جبينه طربوش أنيق أيام الشتاء، وأيام الصيف يلف جسده الفارع جلباب «سكروته» ناصع البياض، يتطوح الطربوش فى يسراه حينما يسير فى خيلاء ، عارى الرأس مثل أولاد البنادر والذوات، العصا المعقوفة لامعة فى يمناه، تضرب وجه الأرض وتتناغم والخطوات ، حذاؤه يلمع فى كل الأوقات ، أضحى يجالس المتعلمين والملاك.. ازداد التحاما بالناس، يتداخل فى متن النسيج، يحاول أن يمحو من قاموس البلدة لفظة «الغريب» مع أعيان البلدة ساهم ـ رغم بخله الشديد ـ فى عدد من المشروعات : السكة الجديدة، مشروع توسيع السوق، الوحدة الصحية، المدرسة الابتدائية.. فى أحزانهم كان أول المواسين، وبهمة شرف أفراحهم، ونقط عرائسهم، خاصة بعد أن وثق صلاته بالمأمور ووكيل النيابة والمشرف الزراعي، والصرّاف، ومفتش التموين.. والولد يوسف يصير شابا جميلا فى خيالات

وأحلام الفتيات، توسع الرجل ، وشارك أكثر من نصف الفلاحين مواشيهم حتى الأرانب والأغنام، لكن اسمه ظل يجرى على كل لسان فى البلدة «موسى الغريب» إذا نطق أحدهم موسى.. وسكت أكمل الآخر بلا تردد: «موسى الغريب» تخرج «الغريب» من الأفواه ينتفض ، تلدغه كثعبان، ولكنه يبتسم في خبث ابتسامة غامضة، لايبدى أى امتعاض، فقد حرص أن يكون هاشا باشا في وجوه الجميع.

ذات صباح انحنى موسى الغريب، فتح الأقفال ، فرد وسطه بصعوبة، ورفع باب الدكان فوقع بصره علي الولد رمضان بياع البيض، خارجا من البلدة قاصدا البندر، تتأرجح سلة البيض فى يمينه - علي غير العادة - فقفزت إلى مخيلة موسى الغريب ذكرى أليمة بشعة، راحت تناوشه فى إلحاح، وتدور في نفسه دوران النار فى فرن مشتعل.

العام الماضى، في بكور يوم «شم النسيم» جري ولدي يوسف وحيدى، حبة قلبي، يسابق في نزق رفاق عمره الشبان، وصل الشاطىء قبلهم جميعا، ضحك عاليا ، وهو يتجرد من ملابسه وراء شجرة صفصاف، تبعثرت جدائلها علي وجه النهر النشوان ، فى لمحة ألقى بنفسه فى أحضان النهر، تجاذبته الأعماق - أمام عينى - وقفت يومها جامدا كتمثال، فقدت القدرة على أى

فعل، أطاع حبة قلبى ـ رغما عنه ـ جبروت الأعماق فغطس ، وقب، وراح يغطس، ويقب، وبين لحظة وأخرى، يرفع إحدى ذراعيه، يستنجد، يستغيث، فى لمح البصر قذف الولد رمضان بنفسه فى قلب النهر؛ فهو يعرف السباحة ، عليم بفنون العوم، أراد ـ فى الظاهر والله أعلم بالباطن ـ أن ينقذ ولدى بأى شكل ، فى أسرع وقت ، ولكن «يوسف» قد شل عقله الذعر، ارتبك، تخبط، من حلاوة الروح تشبث به، شده للغريق، أوشك أن يغرقه معه، بحركة خاطفة ضربه الكلب بياع البيض بقوة فوق أنفه بقبضة يده، تركه ، ونجا بشكل لم يصدقه عقل.

استنكر البعض على رمضان سلوكه، واتهموه بالأنانية والقتل والكفر، بينما وصفه البعض الآخر بالشهامة والرجولة وسرعة البديهة، لم يفلح كل الرجال والشباب فى إنقاذ يوسف الذى ضاع أمامهم فى غمضة عين، لم يخرج إلا فى الليل حينما نصب الغطاسون شباكهم الكبيرة، ودق الطبالون الطبول، وقرع الأولاد والبنات بالأيدى والعصى آنية النحاس وعلب الصفيح ليفزعوا الجنية التى أمسكت بيوسف، وهبطت به إلى قاع النهر.

خرج ليلتها على أنوار الفوانيس والكولبات ـ التى راقصت الأشباح والظلال ـ منتفخا ، وجهه أزرق، عيناه واسعتان جاحظتان ، عظمة أنفه زرقاء، يتساقط من فتحتى أنفه دم أسود

غليظ، وتعلو وجهه ابتسامة استسلام امتزجت بالقهر، تحرك الرجال بجثمانه بضع خطوات فوق ظهر النهر ، وقد دفق الماء من حلقه.. ثم وضعوه، وغطوه بملابسه وبعض القش ريثما تصرح النيابة بالدفن.

حينما رفع موسى الغريب بصره وجد الولد رمضان قد ابتعد دون أن ينتظر رد الصباح الذى رماه عليه، فجأة ضغط الرجل بشدة علي ضروسه ، ضرب بقبضته «رخامة» البنك - أكثر من مرة - دفع كفتى الميزان بظهر يده دون قصد، فانقلبت الموازين، وتبعثرت على الأرض، وفى رأسه ، سدت المرارة حلقه، ولماهدأ قليلا طوى جرحه بين جوانحه، قال فى سره: بلد كلاب، ليس لها عزيز، تذكر أكابر البلدة الراحلين: العمدة القديم، شيخ البلد، الحاج بركات، الشيخ فراج، الخواجة سمعان.. فترحّم على أيامهم ، وداخله شعور بالارتياح، ولما افتكر بعض مضايقاتهم قال وكأنه يكلم نفسه: سامحهم الله، لا تجوز عليهم إلا الرحمة، تركوا البلد فى أيدى عيال، لا يفهمون الأصول.

بعد أيام قلائل - بالتحديد فى عصر اليوم السابق ليوم «شم النسيم» – رأى موسى الغريب بعينى رأسه - وكالعادة - الأولاد والبنات، وبعض الرجال والنساء، يجوسون بين الشجيرات في الحقول بحثا عن أمخاخ البصل الأخضر.. يخلع كل منهم بصلة

يانعة، يختارها، يغسلها جيدا بمياه النهر الجارية فتصير جذورها الرفيعة القصيرة فى لون الحليب، يحطها في السيالة فتقبع وفتافيت الخبز الناشف بالقاع، ثم يتسلق الأولاد شجر شعر البنت كقرود مدربة، يقطعون بعض الأغصان، وهى بطبيعتها طويلة لينة، يصنعون منها أطواقا جميلة، محكمة الاستدارة، يحشون بالمناجل بعض سيقان القمح بسنبلاتها اللبنية، يتفنن الرجال محاولين إظهار مهاراتهم أمام الأولاد، فيتناول الرجل فى خفة عودين من عيدان القمح، يضع بسرعة أحدهما فى فمه بين أسنانه، والأخر فى لمح البرق يضعه فى قمة الشريط ليأخذ مكانه في الجديلة، وتمتد يده بلهفة تلتقط العود من بين أسنانه ليحتل مكانه فى أقل من ثانية بصلب الجديلة، ويستمر الرجل هكذا بلا ملل، دونما تستطيع تركيز نظرك على يديه المتحركتين بسرعة ودربة، تجدلان من تلك العيدان الناعمة الرقيقة عرائس وشبابيك فى تشكيلات بديعة.

راح موسى الغريب يرقب ما يحدث أمامه، شبه مذهول، يفور الدم فى يافوخه، ينهش الغيظ أعصابه ، تتردد أنفاسه حارة لاهثة، يضع يده على قلبه، تتقلص ملامح وجهه، ينزف من الداخل ، يحترق فى صمت، رماهم بنظرات مستنكرة، تجاهلوا نظراته، لم يحسوا به، أو يقدروا مشاعره، راحوا يواصلون - فى

شبه عناد - طقوسهم - شبه المقدسة - التي توارثتها الأجيال من آلاف السنين، استطاع بصعوبة السيطرة على أعصابه.. أخفى فى صدره أحزانه، وتوارى عن العيون، عاقدا العزم - بينه وبين نفسه - على أمر لم يخطر لأحد على بال .

عندما عانق قرص الشمس الأحمر منتهي الأفق الشاحب، وانطلقت أسراب الطيور عائدة إلى أعشاشها ، سحب كل فلاح ماشيته ، وتوجه نحو البلدة، يحمل تحت إبطه طوقا جميلا من أغصان شعر البنت ، أو عروسة لامعة أنيقة من سيقان القمح، وقد تدلت السنبلات كحلقان جميلة راقصة، يمتلىء الطريق بخليط من الآدميين والحيوانات والنباتات ، يعودون يصعد بهم الطريق، ويهبط بفعل أكوام السباخ أو التراب الناعسة أمام الغيطان بلا نظام.. وطوال الطريق يتبادل الشباب النكات المكشوفة فتتغامز البنات، وتنفر صدروهن ، يسري الخدر في عروقهن، تلتقى العيون المتفاهمة فى صمت ناطق، يتضاحك الجميع فيسود جو من المرح، وحينما تقترب البلدة تصافح الأنوف أدخنة الكوانين، تفوح في الخياشيم روائح الطبيخ فتهتاج الأمعاء، ويجرى الريق فى الحلوق.

عندما يصلون دورهم تقبل رءوسهم ذوائب الحطب المرصوص فى حزم متساوية علي واجهات الدور، ينحنون فيرون

دورا طينية عوراء ، تنظر إليهم ـ دائما ـ بعين واحدة، وسرعان ما تبتلعهم الأبواب الواطئة في قليل من الضجة ، يربطون البهائم، يستوثقون من غلق الأبواب .. بعد لحظات يخطف الرجال والشباب جلاليبهم من فوق الحبال فى زوايا القاعات الرطبة، أو من فوق الأوتاد والمسامير الصدئة المرشوقة فى حيطان وسط الدار، يحط كل منهم مداسه تحت إبطه، وينطلق بسرعة نحو الجامع، يلحق بهم الأولاد في خطوات جادة مقلدين، يحتضنهم الجامع، يضمهم جميعا فى قلبه، تهدأ نفوسهم، تسمو أرواحهم ، تنفرج أسارير وجوههم، يتبادلون الكلمات في همس خاشع، يتحاورون بالبسمات، تشع إشراقات فوق الجباه، تغتسل الأعماق بالضوء، يصطف الجميع بساحة الجامع فى صمت مهيب، يصلون صلاة المغرب.. ثم العشاء ، بينما موسى الغريب قد ترك زوجته بدارها وحيدة، تدلك مفاصلها بزيت الكافور وبعض دهانات أملا أن تخف آلام الروماتيزم، وتتركها تنام ليلة دون أن تحس بالمنشار، ينشر فى العظام، راح يجول بطرقات البلدة مصدع الرأس، مشتت الذهن ، تهتز السيجارة بين إصبعيه، وتضرب عصاه وجه الأرض فى نشاذ ، زاما بين حاجبيه ، يتلفت في كل اتجاه ، والناس تنظر إليه فى استغراب.

بعد الصلاة الكل يسعى، يتفرق ، الرجال يرجعون للدور ، وينهمكون في تعليق أطواق شعر البنت ، وعرائس وشبابيك القمح علي الأبواب، وقد توسط كل طوق سمكة محنطة، وبضع بصلات، وفردة قديمة من حذاء صغير بجوار حدوة حصان، بينما اعتاد الشباب والأولاد التسكع عند زكى بياع البوظا، الذى أراح برميله الخشبى الداكن فوق أرض الشارع بجانب الحائط ، غطاه بلوح خشب أبيض ناصع، وفوق اللوح فرد قطعة نظيفة من الدبلان، رص عليها مجموعة من الأكواب مختلفة الأحجام، وعلى يمينه قبعت زجاجات العرقى أو «منقوع البراطيش» كما كان يحلو لنا أن نسميه، وعلى يساره يرقد دلو مملوء بالمياه، يعلو رأسه كولب مضاء، ثبته بمسمار فى عظم الجدار، وبين لحظة وأخرى يضرب وش البرميل بقاعدة كوز كبير فى يده، يصب منه للزبون ويقول بصوته المشروخ : «البوظا القشطة».. يتحلق حوله الشباب والأولاد يتفرجون على مشاحنات الزبائن، أو يضحكون على حركات السكارى، وهم يتخبطون بين الحيطان.

يظهر فجأة موسى الغريب ، يتقدم ، وبكلتا يديه يزيح فى صمت الشباب والأولاد من حول البرميل ، يتفرس فى وجوههم، ثم يقول بصوت تعمد أن يسمعه الجميع: زكى أين يوسف؟

يصمت زكى لحظة ، ينظر فى عينى الرجل فيجدهما حمراوين كعينى عفريت، تتسع حدقتاه ، يكرر الرجل السؤال بشكل حاد: زكي قلت لك، أين ولدى يوسف؟ يرد زكى، وهو يدارى مشروع ابتسامة بكم جلبابه الوسيع: يوسف راح البندر يا عم موسي، وحالا سيجيء ، يبتسم موسى الغريب ابتسامة غامضة، يضرب جنب البرميل الرابض بعصاه، يبصق، يتناثر رذاذ بصاقه علي الواقفين، ثم يمضى تاركا الدهشة تملأ الوجوه.

يتلكأ جماعة من الشباب والصبيان عند زكريا بياع القصب ، يشاهدون المراهنات بين الشبان على تقطيع أكبر عدد من العيدان بضربة سيف اليد؛ يفرد الشاب يده مثل السيف، تتقلص عقل أصابعه ، يميل بجذعه للوراء ، يقطب بين حاجبيه، يستجمع كل عزمه، ويهوى بسيف يده علي العيدان ، وعقب كل فوز تصدر الصيحات قوية خشنة، تخدش الهدوء الوسنان، على غير توقع يظهر بينهم موسي الغريب، يحملق فى وجوههم فى صمت مريب ، يرى يد «يوسف» ولده تنزل مرة على العيدان تجزها كسيف بتار ومرة يراها تنزل على رقبة الكلب بياع البيض فتقصفها فى طرفة عين، يتخلى عنه وقاره، يهلل ويصيح بحماس مثل الشباب، لما تركزت عليه النظرات، وتساءلت العيون، قلب شفته السفلى بقرف فى إرهاق ، نفض طرف جلبابه

بضربات خفيفة من عصاه، ومضى ينز جسده عرقا من كل المسام.

فى الوقت ذاته راح بعض الأطفال يلعبون الاستغماية ونطة الإنجليز، فى الأجران، وتحت أنوار الكولبات أو الأشعة المتسربة من خلال النوافذ الساهرة، وعلى مقربة منهم وقف فتحي بياع العجوة بجوار عربته الخشبية المتآكلة، واضعا يده اليمنى على أذنه، ينادى على بضاعته بصوت نصف نعسان، والليل الريفى من حول الجميع قد تمدد فى قيعان الحارات والأزقة، وعلى ظهور المصاطب المفروشة بأشكال هندسية متباينة من ضوء القمر السهران، ولكنهم - جميعا - يحرصون أن يأووا إلى دورهم فى هذه الليلة - بالذات - مبكرين، فالغد ليس يوما عاديا مكرورًا ككل الأيام، فمن تشرق عليه شمس الغد قبل أن يستيقظ مبكرا، فسيلازمه الخمول والمرض طوال العام، ولن يبارك الإله له فى رزقه أو عافيته، هذا ما قالته الأسطورة، وأكده الأجداد والجدات للأولاد والبنات عبر كل الأجيال.

فى جوف دور قميئة تتجمع النساء والفتيات، يثرثرن، يتحركن فى نشاط.. يخبزن أرغفة طرية مشقوقة، يصنعن الفطائر، يفسخن الفسيخ، يفتحن بطون الأسماك المملحة، ويقذفن بأحشائها قدام الدور من قبيل التباهى أمام الجيران،

يغرقن الفسيخ والملوحة بمزيج من الزيت والخل والشطة ورذاذ الليمون، ثم يشتركن والأولاد فى تلوين البيض المسلوق بالتفتا، فتتباين وتتعدد الألوان، تغمر الفرحة قلوب الأولاد والبنات، يتقافزون فرحين في باحات الدور هنا وهناك، تنشرح صدور الآباء والأمهات حينما يرون الفرحة تتماوج على وجوه العيال، بعد لحظات يداعب النوم الأجفان، تترنح رءوس الأولاد، فيسرع الكبار ويمسكون الأولاد والبنات، يحشون بالششم عيون الأولاد، ويشقون بمراود الكحل جفون البنات دون اهتمام بصرخاتهن أو استغاثاتهن.. ثم يضع كل واحد بصلته تحت رأسه - بالضبط - وسرعان مايروح الجميع - تحت تأثير التعب والإرهاق - فى سبات عميق، فتهجع البلدة، ويخيم فوق دورها سكون حريرى مريح.

ولما سكنت الأشياء فى قلب الليل، وعبقت القاعات المظلمة الرطبة برائحة عرق الأجساد، وروائح أخرى بات موسى الغريب أرقا، يتقلب، لم يسترح على جنب، يخاصم النوم عينيه، ينظر إلى زوجته العجوز بغيظ مكتوم، وقد تكورت بجواره على الفراش فى لا مبالاة، يحس آلاما ثعبانية تتلوى فى عروقه، حنشا يمتص دماءه ، يكتم آهاته، يجز على شفته السفلى فى صمت، يسبل جفنيه، يعصف به الغيظ إلى الجنون، يسأل نفسه فى دهشة

ألف سؤال وسؤال، يتذكر فى مرارة رحلة علاجه وعذابه من أجل الإنجاب، المال والبنون زينة الحياة الدنيا، أنفق الآلاف لدى الأطباء على مستوى المركز والمديرية والعاصمة، أجرى وزوجته عشرات التحاليل، تناول وزوجته كل أنوا ع المقويات والمنشطات ، عملا بكل الوصفات بدءا من تدليك العصعص بالثوم الطازج، وتعاطى الفلفل الأسود والكرفس والجزر الأصفر والتفاح وجوز الطيب حتى أكل اليمام والحمام... أكثر من عملية حتى أنجبا يوسف بعدما ذاقا الأمرين، ثم يأخذه النهر بهذه البساطة؟! .. النهر الذى تعود العطاء يخطفه فى لحظات !.. يموت - أمام عينى - وهو فى ريعان الشباب، المسألة إذن ليست صدفة، إن أرض هؤلاء الناس ترفض امتداد جذورى، أرض هؤلاء تأبى أن يمتد فى رحمها جذر واحد لغريب، حتى ولو فعل المستحيل، ما أصعب أن ينفرط من حزمة القلوب قلب، ويظل مطرحه خاليا بين أحبابه وناسه، أدارت الزوجة ظهرها فترجرج ردفاها المترهلان، تتثاءب ، تحاول النوم فتهاجمها آلام الروماتيزم من تحت طيات ثيابها الثقال، تدير وجهها إليه، تطل فى عينيه فتجد أكثر من علامة استفهام .

يتأمل الرجل تقاطيع وجهها فتحتل ملامح ولده مخيلته : شاب قوى جميل، رجل يعرف حقا معنى الرجولة، مواقفه

والآخرين تقول إن خيره على الجميع، الولد كان شخصية بمعني الكلمة، آه... منذ طفولته والله، وأنا حاسس أنه ابن موت، يقبض بذاكرته على ملامحه، دقائق وجهه المليح، يغمض عينيه، يروح فى غيبوبة أليمة لذيذة، يسرح للبعيد، يفيق متمتما «الولد الذى كان سيفتح دارى من بعدى ضاع، راح كشربة ماء، وهأنذا أعيش وحيدا وزوجتى فى دار واسعة، يهدنى الحزن، وتطاردنى الآلام، حتما سيأتى يوم تغلق فيه الدار، تعشش فيها العناكب، وستقسم أرضى - أيام عمرى وحبات عرقى - بين الأغراب بالقيراط، ويذوب ذكرى فى بحر النسيان... مأساة لايحسها هؤلاء، لقد تبلدت مشاعرهم، وراحوا يمارسون مهاتراتهم السخيفة فى مساء الذكرى السنوية الأولى لوفاة ابنى - أمام عينى - فيما يشبه العناد، دون مراعاة لأية اعتبارات، طرح التساؤل نفسه فتساءل متعجبا وبحسرة:«هل مثل يوسف ينسى بهذه السرعة يابلد ؟!.. ماذا حدث للناس؟!» وتستمر تناوشه التساؤلات كذبذبات محبوسة فى شريان مذبوح..

مع أول صيحة ديك نهض، مد يده رفع شريط الوناسة ملأ الضوء القاعة، أخذها من على المسمار، خرج إلى وسط الدار، سحب علبة من الكوة المتربة، نفض التراب من فوقها، فتح العلبة بكل حرص وحنان، أسند ظهره للجدار، وعلى ضوء

الوناسة الخافت المضطرب انتزع ورقة من الدفتر، أخذ من العلبة المعدنية مسكة إصبعى دخان، أنام الورقة على السبابتين، وبالإبهامين برم الورقة ، وبطرف لسانه بلل حافتها فاستوت بين يديه سيجارة، تعلقت بين شفتيه، أخرج من جيبه كيسا صغيرا من القماش، تناول منه قطعة حديد وقطعة سن مشطوفة، وعقلة بوص يبرز منها فتيل، قرب يده من فمه، وضرب الحديدة على قطعة السن فتطايرت بضع شرارات فاشتعل الفتيل، أخذ نفسا عميقا فاشتعلت السيجارة، زم شفتيه الغليظتين تاركا ثقبا صغيرا، طرد منه الدخان فتماوجت حلقاته فى الهواء، توكأ على عصاه، وبص علي بهائمه فوجدها نافقة، وقد وقف الولد بياع البيض على عتبة الزريبة ضاغطا بكلتا قدميه فوق رأس كلبه «سبع الليل» ماسكا بيده سكينا كبيرا، فنزل موسى الغريب على رأس الولد بياع البيض بالعصا حتى فارق الحياة، أو هكذا تصور.. بعدها بلحظات ، وبهدوء شديد أحضر الفرقلة، وأطال ذيلها وبرمه جيدا، ربطها فى إحكام فى تكة سرواله، لفها حول وسطه، وخرج مسرعا، تاركا زوجته، وقد سرقها نوم مفاجىء.

مع أذان الفجر تصحو الأمهات والبنات يحلبن ، يخرجن من قيعان الحارات والأزقة والشوارع والباحات إلى النهر زرافات زرافات وقد سبقهن ـ سرا وفى تكتم شديد ـ بعض الشباب،

يختبئون أعالى الفروع بين ذؤابات الأشجار، أو خلف قواديس السواقى، يتفرجون خلسة على الأجساد، وربما يمارس أحدهم الفعل متأثرا بما ينعكس على بؤبؤى عينيه.. تقف النساء والبنات، تمتطى إحداهن ظهر النهر، تقذف ببصلتها الأمواج فتتسع الدوائر وتضيق على وجه المياه، تخلع ثيابها الثقال، يتبدى جسدها فى لون جُمار السمار، تحتضن الماء المتماوج برقة وحنان، تغطس ، تستحم ، ثم تلبس الأحمر والأصفر والأخضر، تنتعل القبقاب، تحط فى عينيها الكحل، تنظر وجهها فى المرآة، تملأ الجرة، تغطى فوهتها بالحلبة الخضراء، تجّمل رأسها بأغصان الصفصاف فتصير عروسا، تضع الجرة فوق رأسها مائلة فى دلال ، ثم تخطو برشاقة على السكة ، تضرب بذراعيها الطليقتين نسمات الصباح، تعود إلى دارها وصاحباتها نشيطة جميلة تزغلل العيون.

حينما يتسلل الصباح طفلا يفرك عينيه، محاولا التملص من قبضة الليل العجوز، تغرد البلابل، تشقشق العصافير، تتبدى الدوائر المرسومة بالندى حول جذوع التوت والسنط والجميز، يوقظ الآباء الأبناء، يصحون ورموشهم معجونة بالششم والعماس، يفركون عيونهم، يشرئبون بأعناقهم مستطلعين، بسرعة يسحب كل واحد بصلته من تحت رأسه، ينطلق راكضا

نحو النهر مثل حصان، يرمى ببصلته وجه النهر الصبوح، فتعلو رءوس البصل ، وتهبط والأمواج ، ينزع عن جسده، أسماله، يلتحم والأمواج ، يغطس ، يستحم ، يحك جسده بالطمى ثم بصابون «الفنيك» الرخيص، يغمر الجسد بالماء الدفاق، لحظات ويخرج بعضهم مرتديا أجمل ماليديه من ثياب، بينما يظل بعضهم يلعب، يسبح، يعاود الاستحمام مرات ومرات، الأولاد الذين يخرجون لاهثين ناحية جنينة الخواجة سمعان ، يغافلون الحارس، يسرق كل واحد وردة، ثم يقطعون المسافة من الجنينة إلى البلدة، يتقافزون ويمزحون فى شقاوة بريئة، يحاول كل واحد خطف وردة صاحبه، يطؤها تحت قدميه الحافيتين ، فتملأ الوردة الموطوءة الجو بأريجها الفواح، وتموت فى الحال، يتضاحك الأولاد.. يكركرون بضحكاتهم فى صفاء.

تستقبلهم شوارع وحارات البلدة مكنوسة، مرشوشة بالماء، ورغاوى الصابون، أمام كل دار يتصاعد الدخان من ركوة محاطة بأقراص مصنوعة من روث البهائم المخلوط بالقش أو التبن ، وفي قلب الركوة ينام واقفا قدر الفول المدمس.. يتواثب الأولاد في رشاقة - متنافسين فوق الركوات صائحين مهللين متضاحكين.

بعد لحظات قصار سمعت البلدة صوت فرقعات ،تدوى ،

تشرخ الهواء، رأوا موسى الغريب يتطوّح، ويطوّح بيده فرقلة طويلة الذيل كالأفعوان، يميل بجذعه للوراء ، بكل عزمه وصهد غيظه يهوى بفرقلته على ظهور الأولاد والشباب، وهم يجرون أمامه شبه عراة... يجرى فى كل اتجاه، أشعث الشعر، حافى القدمين ، عاريا كما ولدته أمه، يتطاير الشرر من عينيه، تتناثر من فيه مئات اللعنات، يملأ شدقيه بالبصاق، ويبصق في وجه من يلقاه.. يقف الشباب والأولاد يقذفونه بالحجارة والطوب، يتوقف لحظة ويلتفت ذائغ النظرات ، يسقط عليه وابل من الحجارة والطوب، يختل توازنه، فيسقط على الأرض، تصاب ركبتاه، يجرح ذقنه، ويمتلىء فمه بالتراب، ينهض متعثرا، يسير بضع خطوات مترنحا، يركض على غير هدى، وخلفه الأطفال والشباب، ضاقت عليه السبل، صار سمكة فى إناء ليس به ماء، ولما اقترب منه الولد رمضان بيا ع البيض، استجمع كل قواه وحقده، ودفع به إلى النهر، لكن الولد رمضان كان أسرع منه، فجذبه بحركة خاطفة، وراحا - معا - يغطسان ويقبان.

(ديسمبر ١٩٨٤)



الجـــورة



الشمس تسحب آخر خيوطها الذهبية من فوق الأسطح ومخازن الغلال وأبراج الحمام.. نسائم يونيو تداعب سعف النخيل وشواشى الأشجار ، ثم تنداح فى فضاء المشاتل، وغيطان البرسيم.

نساء قريتنا جلسن أمام الدور، فوق العتبات والمصاطب، يخضن فى أحاديث لا تنتهى ، عن تجاوزات ابن العمدة واستغلاله سلطة أبيه، عن الإتاوات التى راح يفرضها ابن بمبه ورجاله علي الناحية - عمال على بطال - عن انتفادات طالب الحقوق محمد شميس وأصحابه بتوع المدارس، وكلامهم الذى طير النوم من العيون.

وبداية المساء راح خفراء القرية، محمد أبو المرسى، إبراهيم أبو خالد، جلال أبو العينين يمرون على الدور ، منبهين أصحابها طبقا للإشارة الواردة.

- نقاوة الدودة بكره، الفدان عليه نفرين، تجميع الفرق عند طرمبة الأهالى.

بص الحاج سيد أبو سالم، وبصيص ضوء يتسرب من الباب الموارب، لوى رقبته، زم بين حاجبيه، وقال:

- واللى ما عندوش نفرين يضرب الأرض تطلع بطيخ.

رد أبو المرسى وهو يواصل خطواته، دون أن يلتــفت إلى صاحب الصوت:

- يدفع محضر، أو الجمعية الزراعية تأجر له وتبقي تحاسبه.

فى الصباح الباكر تجمعت فرق النقاوة تحت شجرة التوت العجوز، بجوار طلمبة الأهالى.. فرشت مدار ساقية «أحمد أبو حامد »، وجانبا من سكة الترعة الكبيرة، فرقة العفيرة، وأمامها خوليها محمد الشقشتاوى، فرقة العضامية وأمامها خوليها «عطية أبو حسين»، فرقة المحجرة وأمامها خوليها محمد عقل، فرقة حوض الجندى، وأمامها خوليها عبد الله سيد أحمد.. وفرق أخرى غطت حياض القطن بزمام كفر عزام.

بين هذه الفــرق وقف أولاد وبنات، آملين أن تستــتــأجــرهم الجمعية لحساب الملاك، أولاد وبنات نحاف حفاة رثو الثياب، لم يتجاوز عمر الولد أو البنت الحادية عشرة، معلقين فى رقابهم أكياسا من قماش، وبأيديهم صرر الغذاء تفوح منها روائح المش والمخللات والخيار، على بعد أمتار دور طينية قصيرة، تنظر إليهم بعيون عوراء، وهم يقلبون فيما حولهم نظرات حائرة

مستجدية.. فجأة وضع الشيخ «عباس أبو العزم» كاتب الجمعية يده على كتف ولد فكش فى هدومه، سحبه فى صمت من يده، وسلمه لعبد الله سيد أحمد، فرفع حاجبيه الكثيفين، وعلا صوته:

- ده صغير قوى يا شيخ عباس!

حينما لحظ عبد الله بوادر غضب، تطل من عينى الشيخ عباس هرش قفاه، مسح الولد بنظرة خاطفة ، وقال فى صوت هادىء خفيض:

- بس باين عليه شاطر، وغلبان .

فابتسم الشيخ عباس ابتسامة صفراء، ربت على كتفه، وقال ضاغطا على مخارج الحروف:

- «ما تبقاش قطاع أرزاق»

بسرعة أندس الولد وسط لمة أولاد وبنات، فى مثل سنه أو يزيدون، وقد بدت على ملامحه الطمأنينة لما رأى أولادا من حارته، كان يلعب وياهم بالليل قدام الدار.

وسرعان ما حضر ملاحظ الأنفار، شاب طويل، يرتدى جلبابا نظيفا، ينتعل صندلا جديدا، مسبسب الشعر مثل أولاد البنادر، قطب بين حاجبيه فأضفى على نفسه الهيبة والوقار.. نزع من تحت إبطه الأيسر دفترا مستطيلا، يمتلىء بالخطوط والخانات والأسماء ، أخرج قلما من جيب الساعة، وراح يتمم على الأنفار

كلما نادى على اسم رد ولد أو بنت :(حاضر) حتى انتهى.

فى الثامنة تماما أخذت الفرق تتوجه إلى حياض القطن، تركب ظهور السكك والمدقات الملتوية، البخار يتصاعد من الأفواه الجافة الصغيرة، الابتسامة هربت من الوجوه الطفلة، التراب المبلل بقطرات الندى يلتصق بالأقدام، الأولاد والبنات يسيرون بلا نظام، أشجار السنط والصفصاف والكافور متباعدة على حواف الترع والمصارف.. أنفار الفرقة يتحركون وخلفهم الخولى، بجانبه بكر أبو الحاج الذى حصل على الإعدادية من أيام - يطلق عليه أولاد قريتنا: خليفة شميس - يرفع علما على عصا من جريد ووراءهما بقليل ملاة الفرقة امرأة نحيفة، لم تتجاوز الأربعين، تحمل على رأسها بلاصا ، ينز بالماء فتلمع جدرانه فى شمس الصباح، ويتأرجح فى يمينها كوز من الصفيح.

عندما وصلت الفرقة أول غيط رشق «بكر أبو الحاج» العلم فى رأس كوم السباخ، فراح يرفرف فى الهواء، ليكون دليلا للملاحظ والمعاون ورجال المتابعة من مديرية الزراعة.. حفر بكر الجورة، حط فيها بعضا من القش، وفوقه لمَّ كومة من الحطب الجاف، بينما راح العيال يحبكون الطواقى على رءوسهم الصغيرة، وينحنون على عيدان القطن القصيرة، يقلبون أوراقها

الخضراء ، كل نفر في خط ووراءهم الخولى يلبلب فى يده عودا من التيل، عيناه الصقريتان على الظهور المحنية، ومن يتجرأ ويفرد ظهره قبل الوصول إلى الروال يلهب ظهره عود التيل، وحينما يغنون يلعن آباءهم ويأمرهم بالكف عن الغناء والسير فى صف واحد، فتتوازى ظهورهم.. يشخط فيهم:

- وطى يابن الرفضى أنت وهو وهيه، المعاون جى

اصطفت الأنفار، فرسمت خطا مستقيما من الظهور بالقلم والمسطرة، الأيدى الصغيرة تقلب شجيرات القطن يمنة ويسرة بعناية وجد... تحدو بنت، ويرد وراءها الجميع:

- وطلعنا الجبل

يوحه

- ننقى سبل

يوجه

- سبل مالقينا

يوحه

- وشاهين ما مات

يوحه

- خلف بنات

يوحه

ـ خلفهم تسعه

يوحه

ـ ياخى جابهم لسعه

يوحه

ـ ياخولينا يا خولى

يوحه

ـ يا أحسن خولى

يا خولى

ـ خولينا يا خولي الجهادية

يا خولى

ـ عطيات مستنية

وهنا يشخط عبد الله سيد أحمد فى البنت والأنفار عندما يسمع اسم زوجته صائحا:

ـ بس غنا وشوف شغلك يا ابن الرفضى أنت وهو وهيه.

في تلك اللحظة مر محمد شميس على «بكر أبو الحاج»، ربت علي كتفه، وداعب شعر رأسه في إعجاب صامت.. ولما وصل الفرقة صافح المعاون والخولى، بص إلى الظهور المحنية، علق بصوت هادىء رزين، امتزج بشجن رقيق:

ـ الوقت عرفت إزاى بيتعلم ولاد بلدنا الانحناء.

من السيالة أخرج «بكر أبو الحاج» مشط الكبريت، اشعل القش فاشتعل حطب الجورة.. ألقى الأولاد والبنات اللطع فى النار، فتصاعد الدخان كثيفا فى البداية.. وحينما خف امتدت ألسنة النار فى توهجات قصيرة متقطعة، تلحس الوريقات المصابة باللطع الحمراء والبيضاء فينفجر بيض اليرقات، تحترق الديدان.

يصطف الأولاد والبنات فى أحواض القطن، يلمون اللطع، وحينما يمسك أحدهم بلطعة يصيح رافعا بها ذراعه إلى أعلى ، ثم يضعها فى كيسه القماش.. ويمر الوقت بطيئا ، ينتظرون قطار الظهيرة الذى يمر على حقول قريتنا سريعا، العرق ينز من الوجوه الضامرة الصفراء ، ينال منهم التعب والجوع فيحطون عيونهم على السكة الحديد، يلوح القطار المعاند من بعيد، يفردون ظهورهم، يجرون أقدامهم، متجهين نحو الجسر، والولد عاطف يبطىء حينا ويسرع حينا، يحاول أن تتساوى خطواته وخطوات البنت منال، ينير الابتسام وجهها القمحى، فينسى التعب ولون اللطع ولسعات عود التيل، يفترشون ظلال الأشجار، يفتحون صرر الغذاء ، العيش المقدد والجبن والمش والمخللات والبصل الناشف والخيار.. الأولاد والبنات الذين صنع خبزهم من الذرة الصفراء انزووا وراء أشجار التيل والساسابان ، ملاة

الفرقة تمر عليهم بكوز الماء، والولد عاطف يملأ عينيه وقلبه بوجه منال، يدير معها حوارا بالبسمات، لا تنسى وعد أمه(ح أجوزك عاطف يا منال)

فى مساء اليوم نفسه سرت شائعة بين أهالى القرية : أولاد وبنات شافوا الخولى باركا فوق ملاة الفرقة ساعة القيلولة وراء كوم السباخ.

فى الصباح وقف محمد شميس طالب الحقوق، مدفوعا بحماس الشباب أمام الجمعية الزراعية، هاج وماج، وطالب بإجراء تحقيق سريع فيما يقال.. وحينما هدأ التفت إلى زملائه طلبة الجامعة، وتبادل معهم بضع كلمات.. ثم نظر إلى الولد «بكر أبو الحاج» نظرة ذات دلالات، وأمره أن يوسع الجورة حتى لا تسرح الديدان على الغيطان.

تلفت الحاج أحمد أبو وهيب حوله مثل ثعلب يتأهب لخطف شىء.. ارتعشت شفتاه ، قال بصوت خنقه القهر:

- الدودة بترعى فى القطن ، عليك العوض ومنك العوض يارب.

بعد صلاة العصر راح خفراء القرية يمرون على الدور منبهين أهلها تنفيذا لإشارة عاجلة:

ـ من بكره الفدان عليه أربع أنفار، واللى يتخلف ح ياخد محضر

بعد ذلك بقليل ركبت الفرق ظهور السكك والمدقات الملتوية ، عائدة إلى القرية، آخذة الترعة الكبيرة، والشمس التى ستغيب فى يمنها، والحقول الخضر فى شمالها، يغنون ، تحدو بنت والجميع يردون وراءها:

ـ أبوح وياأبوح

يوحه

ـ كلب العرب مدبوح

يوحه..

ـ ياطالع الشجره

يوحه..

ـ هات لى معاك بقره

يوحه

ـ تحلب وتسقينى

يوحه

ـ بالمعلقة الصينى

يوحه

ـ والمعلقة انكسرت

يوحه

- يامين يعدينى..

فى نفس الليلة سرت شائعة جديدة بين الأهالى ،ابن العمدة شارك عبدالجواد الزرقاوى - غصبا عنه - في الجرار والدراسة والجاموستين.. وقيل إن أخاه ترازل على الحاج محمد النحاس حتى أشركه فى محل البقالة ومنشار الشق، وانتهز ابن بمبه ورجاله الفرصة فراحوا يفرضون إتاوات أكبر على الخلق فى كل زمام السنبلاوين .

بعد أيام قلائل فاض بالناس الكيل، راحوا يغلون فى صمت، ثار محمد شميس في وجه العمدة، ومن خلفه الطلبة و«بكر أبو الحاج».. انتقدوا تجاوزات ابنيه، وأوضحوا له ما تسببه من ضغائن وأحقاد.. مسحهم العمدة بنظرة خاطفة، ركز نظراته الحادة في عيونهم ، رد بهدوء يغيظ :

- ولادى ما ضربوش حد على إيده..بطلوا حقد.

شوّح محمد شميس فى وجه العمدة بكلتا يديه، هدد الطلبة بالشكوى لوزير العدل، وأفهموا العمدة أنهم يعرفون الطريق الصح، وإنهم سيرونه النجوم في عز الظهر.

بعدها بلحظات سمع ناس قريتنا المذيع، وهويلم ذيل نشرة أخبار التاسعة:

ـ «نقلا عن مصدر مسئول : أكدت تقارير المتابعة الميدانية بوزارة الزراعة أن المقاومة اليدوية تعمل علي قدم وساق، ونسبة الإصابة فى حقول القطن وفقا لآخر إحصاء لم تتجاوز الخمسة فى المائة، والمساحات المنزرعة بحالة جيدة، وتبشر بإنتاج عال هذا العام، هذا والوزارة لن تلجأ إلى المبيدات حفاظا على البيئة». صرخ حلمى أبو سليمان في صوت مكتوم:

ـ كداب ابن كداب

فى عز نقرة الظهيرة، تحت وقدة الشمس راحت فرق المقاومة تبذل قصارى الجهد.. بينما البيض راح يفقس.. ويفقس ديدان كثيرة.. كثيرة، متأثرا بظروف الجو.. وهاهو ذا «بكر أبو الحاج» يوسع الجورة.. يوسع بعزم لا يكل ، يصرخ فى شبه جنون، بصوت واثق:

ـ لابد أن تتسع الجورة لكل الدود.. كل الدود.

(يوليو ١٩٩٧م)



تلك اللحـــظة



برغم أنه ولد ونشأ فى أعماق الريف، وأمه اسمها خضرة، وأبوه الحاج عوض الله ـ يرحمه الله ـ كان فلاحا قراريا، والابن ـ بطبيعة الحال ـ يفهم جيدا فى شئون البقر وأنواع الطيور والحبوب ومواعيد الزراعة ومواقيت الصلاة، فقد عاش حياته منذ نعومة أظافره دلوعة مرفها، ديك البراير بين نصف دستة من أخوات جميلات، تزوجن فى سن صغيرة، وتركنه وحده وأمه فى دار واسعة من الطوب اللبن، آكلا شاربا نائما ، يقضى أوقاته كيفما اتفق، أما قيامه بعمل أو تكليفه بأمر من الأمور فهذا استثناء للقاعدة، وربما كان شذوذا.

فى ذلك اليوم قام من نومه مبكرا على غير عادته ، دخل فى جلبابه الذى كان معلقا على مسمار خلف باب القاعة، خطف ركعتى الصبح فى مصلى الحاج شكرى على جسر الترعة الكبيرة.. وسارع الخطا إلى الستة قراريط، التى طابت عيدان الذرة فوق أرضها الرطبة.

وقف على رأس الستة قراريط ، خلع جلبابه السكروته، لفه بعناية، ووضعه لصق جذع شجرة الجميز العجوز، وحط فوقه طوبة كبيرة.. بهمة حزم وسطه بشملة، كان يلفها حول رقبته، شمر عن ساعدين شابين، جلس القرفصاء وأشعل سيجارة، وقبل أن تنتهي طوح بها على طول ذراعه، فارتشقت بحرف المروى، وفى نوبة حماس راح يقطع أعواد الذرة، هاويا بحد العواقة المسنون على جذوعها فتتساقط فى تتابع، وتحتضن الأرض الحنون تحت تأثير ثقل الكيزان الحبلى .

بعد فردة واحدة، عند الروال فرد وسطه ، حس أن ظهره يتقلص تقلصات خفيفة رغما عنه، وعضلات أخرى تتقلص وتؤلم، وشعر بأن الشمس فى تلك اللحظة قد صارت عمودية فوق رأسه العارى، رغم أن الساعة لم تتجاوز التاسعة صباحا، نشع العرق ممتزجا بملوحة لاذعة، وبلل كل جسده، بل انزلقت قطراته فى قناة ظهره، جفَّ ريقه فجأة بعد أن تلاحقت دقات قلبه، وانكرش نفسه، نظرفى كفيه فوجدهما احمرتا، تفل فيهما، وزفر زفرة طالت أكثر مما يجب.. جلس القرفصاء، وسرعان ما أراح مقعدته فوق الروال، مد ساقيه على راحتيهما... حينما التقط أنفاسه أشعل سيجارة، فشكلت حلقات الدخان وجوها راحت تقهقه ساخرة، نكس رأسه.. صدأت عزيمته تماما...

تمتم – بينه وبين نفسه– : ما أصدقك يا أعظم الخلق «اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم».. تسربت معانيها فى أعماقه، وتجسدت حية نابضة، تذوق مراميها البعيدة بشكل يختلف تماما عن ذى قبل، وكأنه لم يسمع تلك الكلمات إلا فى تلك اللحظة.

(أبريل ١٩٩٥م)



البطـــل!

فى نعومة الحرير تسلل إليه إحساس مبهم، سيطر عليه رغم الضجيج، ونداءات الباعة، ومشاجرات الركاب ، رفع يده اليمنى - بعد تردد ملحوظ - وتحسس الوسام فى سرعة بارقة بأصابع مرتجفة، زم بين حاجبيه، مسح المكان بعينين قلقتين ، ثم غاب عن الجميع.. دوامة لا تهدأ قذفت برأسه هنا وهناك، عشرات المرات ركب هذا القطار ، وليست هذه المرة هى الوحيدة التى يعود فيها إلى قريته بعد غياب طويل!.. إذن ما سر هذا الكابوس؟!.. ما الجديد الذى يعكر الصفو؟!

سؤال بدا بسيطا، لكنه فرض نفسه، وتشعبت أطرافه، طرق به التفكير أبوابا شتى، لم يصل إلى سبب واضح، بحركة لاشعورية تحسس الوسام - أكثر من مرة فعل ذلك - وفى كل مرة كان يتملكه زهو ما يلبث أن يزول تحت وطأة الصراع الدائر فى أعماقه.

القطار يسرع الخطا، تلامس عجلاته القضبان فتحدث إيقاعا رتيبا يذكره بلحظات الوداع المريرة.. يتلكأ عقله.. يشت فكره

يسغيث بلحظات التركيز فتفر منهاالخيوط، وتتمرد عليه، يسرح للبعيد، يمد يده يتحسس الوسام فيقشعر بدنه، تزدحم رأسه بالمعارك والرفاق، والدشم والعطش والموت، والدمار، وسنوات الانتظار ..كاد رأسه ينفجر، يتشجع - على الرغم من الصداع - ويفتح خلايا مخه، يعرى نفسه.. ثم يتجرأ ، وينظر ، فيتضاءل حجمه.. تتزلزل الأرض تحت قدميه، يتأمل فتتبدى الحقائق أمام عينيه مؤلمة بشعة.

عندما أذاعت الإذاعة موعد تسليم الأوسمة لأبطال العبور، عم الخير القرية تجمع الناس حول «الراديوهات» وشاشات التليفزيونات، حتى الذين حتمت عليهم ظروفهم الذهاب إلى الغيطان حملوا «الترانزستور» مع الأكل والشاى والمعسل، أهل القرية اعتقدوا لسبب غير محدد، أو بحاستهم الخاصة، أن قريتهم ستكرم فى شخص إبراهيم عوض الغنيمى، الولد الذى خاض معارك أكتوبر، وشارك فى صنع المعجزة..قال لهم طه الحسينى - زميل دراسته بالكلية - : إنه تصدى لتشكيل كامل من دبابات العدو، واستطاع تدمير عشر دبابات بمدفعه الصاروخى، ولم يصب إلا إصابات طفيفة، رغم قصف العدو المركز عليه، ولولا ستر الله، وقدرة إبراهيم على الحركة والمناورة لما نجا من موت محقق حاق به.. أيضا أكد لهم العمدة بعد أن أوهمهم بأنه - وحده - العالم ببواطن الأمور: إن إبراهيم بن عوض الغنيمى

أحد الذين دمروا اللواء(١٩٠) الإسرائيلى رابع أيام المعركة، حينما كمن ورفاقه فى خنادقهم ، واللواء المغرور يتقدم ومطلع الفجر.. الحرب خدعة ..لم يتعاملوا معه حتى صار لواء العدو بكامل عدته وعتاده في مرمي النيران الموثر، وحينئذ فتحوا عليه أبواب الجحيم.. لم تشرق شمس التاسع من أكتوبر إلا ودبابات اللواء ومدرعاته حطام فى حطام،استسلم قائد اللواء ومعه مئات من جنوده، ولولا ستر الله، وثقة إبراهيم فى نفسه لاستشهد فى تلك المواجهة،وإن كان قد أصيب ونقل إلى المستشفى، وخرج بعد أيام قلائل.. عشرات القصص..عشرات الحكايات اتفقت في المعنى وإن اختلفت في التفاصيل، انتشرت فى القرية، وتناقلها الناس، كانوا فى حيرة يريدون بفارغ الصبر قطع الشك باليقين.

حينما بدأ التليفزيون والإذاعة ينقلان وقائع الحفل المرتقب على الهواء مباشرة، راح الجميع - فى شوق وترقب - يتابعون الأسماء، القلوب تنبض بشدة، الدقات في القلوب تتلاحق بسرعة غير عادية.. الإحساس المتوتر يوشك أن ينفجر، الدماء تلهث فى الشرايين، العيون مركزة على الشاشات.. الآذان تلتصق بالسماعات، كل الحواس صارت آذانا تلتقط الحروف قبل أن تنطقها الأجهزة.. يعلن المذيع : جندى مؤهلات: إبراهيم عوض الغنيمى، من أبطال بدر: وسام الشجاعة العسكرية، فتنطلق تكبـــيـــرة مـــدوية، هزت حـــيطان الدور الطينيـــة، تخـــتلط

الأصوات وتتمازج، تتلاحق الجمل على ألسنة الرجال، ترتفع الزغاريد، تشق الفراغ، تخرج العبارات من الأعماق، يجرى فى عروقها ماء الصدق الرقراق.

فى اليوم التالى شق دروب القرية موزع التلغرافات، وفي يده البرقية، تمتد الأيدى.. تتخطفها.. يقول صوت آمر: اقرأ البرقية يابشمهندس، يعقبه صوت أكثر حدة: ناول البرقية للعمدة يارمضان، يبسط الهدوء جناحيه، يسود المكان صمت متحفز، لهثت الأنفاس، اشرأبت الأعناق.. قرأ، قالت الكلمات : «أنا بخير.. سأحضر اليوم فى قطار الثالثة.. إبراهيم» فى تلك اللحظة انطلق شباب القرية ورجالها نحو المحطة كسهام مارقة، فقد قرروا - بينهم وبين أنفسهم - حمل بطلهم إبراهيم الغنيمى على الأكتاف من المحطة حتى القرية كنوع من التكريم .

احتكت العجلات بالقضبان إيذانا بتوقف القطار.. أطل من النافذة، لاح لعينيه رصيف المحطة التى قبل محطة نزوله مغسولا بماء المطر، ويلمع تحت أشعة الشمس.. تمتم : «ليت المطر...» تكشف الجو بعد رعد وبرق، وأوحى بجو صحو.. لمح بعض المعارف يتزاحمون على الركوب بقففهم وسلالهم، أغلق النافذة بهدوء متوتر، وركن إلى العزلة عله يصل إلى قرار يريحه من عذابات ضميره اللحوح، سرعان ما تحرك القطار يقطع المحطة الباقية بسرعة غير عادية، لم تبق سوى دقائق ويصل... القطار

على وشك الوقوف .. تحسس الوسام فى بطء، وتنهد بحرقة.. بدأت العجلات تحتك بالقضبان تعطى إشارة البدء للنزول انتصب واقفا، تحسس الوسام بيد مهزوزة.. حينما لاح على باب العربة الأخيرة تخاطفته الأيدى، أذهلته المفاجأة، أخرست لسانه، هزت وجدانه.. لم يقاوم، لم تكن هناك فرصة لذلك، صار قشة جرفها التيار... امتثل للإرادة الأقوى، لم يقو على المعارضة. حملوه بالفعل فوق الأكتاف، وراحوا يهتفون في حماس بالغ للبطل العائد، بينما كان الأطفال يتمايلون وراءهم فى سرور واضح، وفى أيديهم المرفوعة يتعانق سعف النخيل وفروع الصفصاف.

فى ضجيج الموكب الصاخب نشطت ذاكرته، وراحت تستعيد ما حدث، الطائرات تمرق كسهم فى الاتجاه الشرقى.. سلاح المهندسين يفرد الكبارى فوق القناة بسرعة فائقة تحت ستار من النيران.. تتقدم التشكيلات العسكرية بثقة ..(مصر) قطرة دم تجري فى كل العروق ، تلامس الشرايين فتتشبث الأيدي بالسلاح، تقبض عليه بقوة ، النظرات صارت شفاها تقبل الضفة الأخرى فى شوق ولهفة، الإصرار تعبير حاد انطبع علي كل الوجوه ، الأرواح من فوق الأكف تحلق كحمامات بيضاء الرجال يرصفون بالدم طريق الخلاص، الحناجر تزأر .. القوات تعبر ، أيام لا تنسى، كل ثانية حُفرت على الضلوع، وحبات

العيون ، المعابر تصب الجحيم على قوات العدو، انطلق المارد يجتاح السدود، يدك الحصون .. ذُعر العدو، اربكته المفاجأة، شلُت حركته، من حلاوة الروح فتح نيرانه علي موقعي فتصدت له أسلحة الرفاق بفدائية ، راح قلبى يرتجف، تعالت دقاته، تلاحقت ضرباته، سقطت روحى فى قدمى، فى لمح البرق فررت إلى داخل الدشمة كثعبان.. الانفجارات تدوى فى صوت يصم الآذان، ويرهق الأعصاب، أحفر بأظافرى الأرض.. أغوص فى جوف الرمل، أصير جنينا فى رحم الأرض.. أرفع رأسى، أطل فأجد الموقع مفروشا بجثث الرفاق والصحاب.. عيونهم المفتوحة مسامير تنغرس فى نن القلب ، في ثانية أخفض الرأس، أغيب أطرافى فى فتحات الأرض، أغوص فى بطن الرمل، أتوارى .. يبدأ دم الرفاق والصحاب رحلته الساخنة فى شقوق التراب، ينحدر في قنوات صغيرة، يتجه إلى الدشمة، يلسعنى الدم، ينهمر الدمع، يلفني الضباب والموات والقهر، أفيق حينما يتوقف القصف - بضع لحظات - أجد جسدى قد استحم بالدم.. أرواح الشهداء ترفرف فى الجو فتكتوى النفس. في قلب الدشمة من «الترانزستور» جاء صوت المذيع عقب أغنية وطنية عالية النبرات واثقا: «نجحت قواتنا فى اقتحام قناة السويس فى قطاعات عديدة، واستولت علي نقط العدو القوية بها، ورُفع علم مصر على الضفة الشرقية للقناة» أخذت نفسا عميقاً فى ارتياح، بلعت

ريقى عدة مرات، قفزت من الدشمة، زحفت بين الأشلاء، اندفعت في سرعة إلى مركز القيادة، شد القائد على يدى، مسحت الدم من فوق جبهتي، وابتسمت ..

حقا كانت تلك الأيام الستة شيئا غير عادى، كل ساعة صارت أشبه بيوم حشر، كل خطوة كانت فوق حبل من نار، كان العبور حجرا ضخما أُلقى فى ماء راكد، فاتسعت الموجات، وحوت العالم، اهتزت المقاييس فى رءوس الساسة، صُححت المفاهيم، عُدلت الأوضاع.. ولكن وضعى - وحده - يظل شاذا ومختلا مع الواقع.. كل الواقع..كيف أصير بطلا من داخل دشمة؟! كيف؟! الموكب الصاخب يواصل سيره.. لكن التساؤل المعاند لايزال يفرض نفسه.. يتذكر الرفاق والصحاب ، الموقع ، الدشمة، ومشاركته لهم السيجارة واللقمة والشربة، فتقفز الحقيقة تطحن خلايا عقله، ينزلق فى سرعة من فوق الأكتاف.. يسقط ..ينهض.. يركض، ويركض.. وظل يركض حتي صار نقطة باهتة عند نهاية الأفق .

(أغسطس ١٩٨٢)

الرحـــلة!



أثارت فكرتي عاصفة بين الأصدقاء ، حتى تطاولت الأيدى وصفعتنى على قفاى، لم استسلم لعاصفتهم الهوجاء، مازالت رحلة البحث عن الحبيبة فكرة تروقنى إلى حد بعيد ، يبدو أننى طموح جدا، على كل أنا رجل ، وسأتحمل تبعات ما قررت:

- الرجولة ليست كلمات يا عاشق نادى السعادة.

- أقسم بكل عذارى العالم أنني أملك شجاعة التنفيذ على أقل تقدير.

- ها .. ها .. ها ... أبله بلا شك .. أبله بلا شك.

- غريبة؟!.. مادامت لكل منكم حبيبته فما المانع أن أبحث عن حبيبتى؟!

- لا يا عُبد.. أنت فقدت عقلك.

- اعذروه يا جماعة شرب كثيرا هذه الليلة.

قلت فى برود شديد أغاظهم جميعا.

- لا .. وشرفكم أنا فى كامل قواى العقلية.

ثم أردفت فى ثقة واضحة قائلا للجالس قبالتى :

- العب عشرة أخرى، وسأكسبها يا ساذج.

جاء صوت أحدهم من إحدى الزوايا ثعبانا يتلوى:

- هذا المنحوس يفكرنى بشبابى .. ها .. ها.. ها..

قلت في نبرات حازمة، متعمدا أن يسمعنى الجميع:

- البحث عن الحبيبة هو الأمل الذى يربطنى بحياتكم التافهة.

جاء صوت كبير الشلة يطرق أذنى ساخرا:

- البحث عن الحبيبة اسم وجيه!

بلعت ريقى بصعوبة، وتكسرت الكلمات فى حلقى:

- الصمت أبلغ إجابة أيها البلهاء.. أنا خارج ، سخريتكم تحبس الدم.

خرجت زافرا .. مازالت كلماتهم ترن فى أذنى كصوت لحوح.. ظلال سخريتهم تفترش ذاكرتى، وتفرض علىَّ التحدى فرضا... من واقع التحدى ، آسف ، من واقع رغبتي الجامحة بدأت خطوتى الأولى على الطريق، وخطوة ثانية، وثالثة، وخطوة بخطوة تابعت رحلتى المنشودة، عازما على البحث عن حبيبتى فى الريف الأصيل؛ فالأصباع فى المدينة شوهت الأشياء، وزيفت الحقائق.. تابعت الرحلة جادا، المساحات اللانهائية تمتد عبر الأفق عن شمالى ، وعن يمينى.. بخطوة تتبع الأخرى قطعت

أكثر من ثلاثين كيلو متر سيرا على هذا الطريق الوعر.. تورمت قدماى فوق تراب الطريق الملتهب.

لحظة وصولى شجرة ضخمة وارفة الظلال استرحت.. مصادفة جلست بالقرب منى عرافة عجوز، متعبة بعد تجوالها بين القرى.. تبادلت معها بضع كلمات فى إرهاق.. بسطت حبيبات الرمل فوق المنديل المحلاوى محاولة إغرائى.. لم أقاوم .. رميت بياضى، خططت أصابعها المعروقة حبيبات الرمل فى إتجاهات مختلفة.. برهة صمت.. وحدقت فى عينى بتركيز شديد :

ـ أنت تبحث عن حبيبتك، أليس كذلك؟.. اطمئن.. ستجدها في انتظارك على امتداد أكثر من أربعين كيلو متر.. تسكن قرية منخفضة، بيوتها من القش والطين وشظايا الزجاج... حبيبتك يابطل رائعة القوام، شعرها أسود فاحم، عيناها سوادوان، وجهها قمحى اللون، نشيطة الحركة، نظراتها تغرى الملاك.. ستراها فى شرفة بجوار بيت العمدة.. والقرية ستدخلها ومنتصف الليل، عند مدخل القرية ستهاجمك مجموعة من الكلاب الشرسة، ستمزق ملابسك، وتدمى جسدك... نصيحتى أن تتحمل فبدون ذلك لن تنال بغيتك.

قلت على سبيل المجاملة، هازئا ساخرا:

-شكرا يا عرافتى النابهة.

تحركت - على الفور - سائرا ، يقودنى قدر لا طاقة لى برده... تجوب عيناى أقاصى الأفق كفلكى يبحث عن سر جديد بين النجوم.. خطواتى تتوالي فى إصرار عنيد.. تلتهم قدماى الطريق فى حماس دافق.. الشمس تلقي تحية الودا ع على أصدقائها .. الليل يرخى ستائره فى بطء معاند.. مشاعرى أضحت فى لون الشفق.. وداخلى فى حالة اشتعال حاد.. القرية المنشودة تلوح لى من بعيد... الطبيعة تعزف سيمفونيتها الرائعة.. هانت، لم تبق إلا عشرة كيلومترات وأصل.. على الرغم من الإرهاق الشديد تلذذت بالسير ليلاً على ضوء القمر.. لا طفت جبهتى نسمات رقيقة حلوة، ذكرتنى برائحة الحبيبة المفقودة.. يا سلام، أخيرا وصلت إليها ومنتصف الليل، هاهى ذى القرية غارقة فى أبلغ صمت.. سقطت الصخرة من فوق صدرى.. تنفست الصعداء.. نباح الكلاب يعلن عن بقايا حياة وسط ظلام القرية الممزق.

- ...

وهجمت على باقى الكلاب... تمزقت ملابسى، الخدوش والتسلخات تفترش جسدى.. كل هذا يهون فى سبيل الحبيبة المأمولة.. لم أبال بملابسى، لم أشعر بالخدوش أو التسلخات..

يبدو أن كلام العرافة مضبوط.. سأصل، سأصل.. كل المقدمات تنبىء بذلك، من نشوة الأمل الجارف شدنى صوت الخفير الخشن:

- من هناك؟!

- عابر سبيل .

- اقترب يارجل.. إلى أين؟!

- إلى منزل عمدتكم.

- لماذا؟!

- لأمر يخصنى .

- بيتى بيتك يارجل.. تعال معى علي الرحب والسعة.. حصيرة الصيف واسعة .

- لن أطيب نفسا إلا فى منزل عمدتكم .

- أنت حر يا بن الناس.. هل أذهب معك؟

- شكرا يا أمير .

- الغريب أعمى، ولو كان مبصرا .

- ما غريب إلا الشيطان .

فى دار العمدة رقدت حوالى الساعة، لم أذق مثل لذتها فى حياتى.. خوار ثور العمدة يجلجل فى الدوار .. بلا إرادة صحوت، أضجرنى القلق... فكرت فى لعبة تسلينى، على عتبة

كل دار أوقدت شمعة، هدانى تفكيرى إلى هذه اللعبة بشكل عفوى مفاجىء.. قطعا ستكون مفاجأة للقرية فى الصباح.. لعبة رومانسية؟! لا ومسلية جدا.. نفذت المهمة، وعدت سالما إلى دوار العمدة دون أن يدرى بى أحد - على حد التعبير العسكرى المشهور - الخفير النابه يغط فى سبات عميق، ويصدر منه شخير مزعج، رقدت ثانيا مكدودا، لم أدر متى أغرقنى النعاس تماما.. فى الصباح أيقظنى رجل كالمارد:

- قم شف أكل عيشك يا أخ .

فى الحقيقة لم يكن لى عيش أشوفه، أو آكله.. خرجت من الدوار على ريق النوم.. على بابه قابلنى رجل، شعرت نحوه بعاطفة ما، تشبه الصداقة، عكست ملامحه الاحساس نفسه حينما رآنى، اخترقت الحاجز الوهمى مصافحا إياه، تكلمنا ، تضاحكنا، كركرت ضحكته قوية صاخبة ذكرتنى بسخرية أصدقائى رواد «نادى السعادة» ما علينا... قبلت دعوته على فنجان شاى فى «نادى الحرية» وهناك تكلمنا، تضاحكنا، وحينما وفد صديق حكى له عن سر رحلتى، قهقه صديقه ضاربا كفه بالأخرى، ثم قال بصوت عال:

- مجنون، والله العظيم مجنون!

وتوافدت شلته الواحد تلو الآخر، كل منهم يردد ما قاله

سابقه ـ بنفس النبرات وبنفس الحركات ـ عندما يسمع حكايتى، ارتبك «نادى الحرية»، تحلق الأطفال حول مدخله، يدفعهم فضول جارف... خرجت من «نادى الحرية» لاعنا هذا الزمن الخائن بوحداته الثلاث... تتبعنى الأطفال بهتافهم الصاخب المطارد:

ـ المجنون.. المجنون ..المجنون

كان الهتاف المطارد ـ على الرغم من تفاهته ـ يزلزل نفسى.. شخطت فيهم.. نثرت سبابى فوق رءوسهم، لم يبالوا ، ازداد الهتاف حدة وعنفا، بدأ قذف الطوب والحجارة بصورة مزعجة، شجت جبهتى طوبة، وكسر ضلعى حجر، لكن مع قدوم الليل انتهت المطاردة، حينما تهت عن الأنظار بين تلافيف الظلام.

فى الظلام راودتنى فكرة الانتقام، وسرعان ما اقتنعت بها، درت حول القرية فى إطراق غريب .. اكتشفت ثلاث طرق تؤدى إليها، على رأس كل منها كومت هرما من قش الأرز الناعس فى الأجران، أشعلت الأهرام الثلاثة.. صار ليل القرية نهارا فى لحظات ، صارت الأشياء غير الأشياء ، وربما عكس الأشياء.. هب الأهالى من مضاجعهم مذعورين.. نظروا إلى أمواج اللهب المتصاعد فى حيرة... لفوا حولى مدهوشين..

صرخت بأعلى صوتى:

ـ أنا المُشعِل والمُشعَل.. أنا الأبيض والأسود.. الحقيقة.. فى

عصركم لم أعد أعرف من أنا؟!

اقترب منى العمدة يسبقه كرشه الضخم:

- لتكن ما تكون .. فهذا ليس مبررا لحرق أشياء الآخرين

- أنا أحب إليهم منك.

- لكنك لم تعرفهم يا هذا!

- أنا أكثر معرفة بهم منك.

- لا تراوغ.

- أنا صريح جدا.

- مادمت لم تعرفهم فماذا تقول يا ...؟!

- كيف؟!... بل أعرفك أنت الآخر يا حضرة

- غريبة!.. لم يسبق أن رأيتك؟!

- لكننى رأيتك أكثر من مرة.

بعد هذه الحوارية تقدم نحوى بعض الشبان، يستسمحون الرجل فى قصف رقبتى.. اقتربت منهم بضع خطوات ، زمجروا فى صوت واحد، حينما ربت فوق أكتافهم انخفضت أصواتهم الزاعقة، وهدأت أنفاسهم الثائرة رويدا رويدا حتى تلاشى الغضب تماما.. ثرثرت طويلا عن الخير والشر والحق والفضيلة.. اكتشف العمدة قوة شخصيتى، ومدى سحر كلماتى المتسرب داخل حناياهم، بسرعة تكلم، لفنا الصمت، وسرعان

ما اقترب منى ، جذب ذراعى اليمنى بقوة وقسوة:

- كفى مغالطة، وكلاما فارغا.. القانون وحده سيكون الحاكم العادل بيننا، وبينك.

لم تعجبنى كلماته المتغطرسة، احترق داخلى، نفثت فى وجهه دخان سيجارتى، لطشنى كفا فتهدل شاربى...ازداد داخلى احتراقا.. دمعت الجروح فى قلبى.. صرخت بقوة :

- القانون سأحترمه فلا تمد يدك وإلا قطعتها.

قال بنبرة المنتصر، والمنهزم فى آن معا:

- مادام الأمر هكذا فخذه إلى المركز يا خفير.

تحولت إلى المركز يلازمنى خفير ذو عضلات فولاذية وجسد قوى ضخم ، فى المركز تمت إدانتى بشهادة شهود العيان، حُكم على بالسجن.. فى السجن صافحت عيناى وجوها كثيرة ثائرة.. تسرب الملل واليأس إلى قاع نفسي بكامل ثقلهما.. ألصقت جبهتى بحديد النافذة الملتهب تحت وقدة الشمس.. مسحت نظراتى القلقة شرفات ونوافذ الحي المقابل.. سبحت فى بحار ذكرياتى وأيام مجدى السالف... حديد النافذة الملعونة يلسعنى بحرارته دون رحمة.. نظراتى القلقة لا تزال تجوب كل الشرفات والنوافذ .. هاهى ذي في الشرفة الصفراء.. وجدتها؟! وجدتها؟! ..أناأعظم من أرشميدس.. أنا أعظم من أرشميدس..

هى..هى... نفس الملامح: الشعر الأسود الفاحم، العينان السوداوان ، الوجه الخمرى الجميل... نظراتها تخلعنى من عالمى الطينى، العالم يأكل من طبق واحد.. هاهى ذى حبيبتى أيها البلهاء.. هاهى ذى رفيقتى ورحلة العذاب.. جبهتى تزداد التصاقا بحديد النافذة المحكمة الإطار.. الحديد يلسعنى بحرارته الطاغية بلا رحمة.. لم أبال... وهأنذا أفرد ذراعى جاهدا، وأمد يدى راغبا.. لكن يدى؟!... يدى؟!.. ماتزال قصيرة!.. قصيرة!.. أقصر مما كنت أتصور.

(يوليو ١٩٧٣م)

حنين

إثر أزمة عاطفية مباغتة صار قلبي حديقة هجرها الربيع، فتاقت نفسي إلى زيارة قريتنا، حتى أمتع عيني برؤية تلك المساحات الشاسعة من الخضرة، وأطهر رئتي بنسائم الريف المنعشة، مجالسة رفيقات الصبا، وإنعاش ذاكرتي بذكريات حميمة، التصقت بأعماقي منذ أيام الطفولة الباكرة... ووجدتها فرصة أن أصاحب والدي في سفره إلى القرية ، يحدوه أمل أن ينهي قضية معقدة هناك..رحت بهمة وحماس أعد حقيبة السفر، وأجهز ما نحتاج إليه أنا ووالدي، فدارنا هناك شبه مهجورة لايلم بها أحد إلا في أيام متباعدة، يمليها تقديم واجب العزاء في قريب، تربطنا به علاقة قوية، أو تحصيل الإيجار المستحق عن فدانين ، ورثهما والدي عن جدي، الذي قتل ذات ليلة شتائية بعد أن دوخ المديرية.

صباح يوم السفر ارتدينا ملابس الخروج، وقبل أن تلمس أقدامنا عتبة باب الشقة دق جرس التليفون، زم والدي مابين حاجبيه، ارتجفت السيجارة بين أصبعيه، زمجر وهو يتجه إلى

سماعة التليفون : يا فتاح يا عليم.

رفع السماعة بتأفف :

وسرعان ما فرد طوله فاعتدلت قامته، امتدت يده اليسرى لاشعوريا، تتحسس ياقة قميصه، وتعدل من وضع كرافتته:

- صباح النور يابك، تشرفنا يابك، طبعا أنا رهن الإشارة.

-...

- ربنا ما يحرمنا منك ولا من توجيهات سعادتك.

- ...

- المشكلة يا أفندم...

ولم يكمل والدى، يبدو أن الطرف الآخر قد أغلق الخط.. راح والدى يسب ويلعن البك، ويصفه بأحط الصفات، غاضبا لاضطراره تأجيل السفر بعد أن ارتبط بمواعيد وأكابر فى قريتنا .. لما وجدنى مقطبة الجبين، تكسو وجهى سحابة حزن، وأكاد أضرب بقدمى بلاط الصالة مثل الأطفال فى لحظات الغضب ، قال كمن غلب حماره:

- سافرى أنت وسألحق بك، لن أتأخر كثيرا، المسألة لن تستغرق أكثر من ساعة زمن.

فى شبه جزع ضربت أمى صدرها بكفها:

- البنت تسافر وحدها؟!

رد والدى بنبرات مطمئنة حاسمة:

ـ لا إله إلا الله، وماذا فى هذا؟ البنت كبرت ، تسبقنى حتى تنظف حجرة ننام فيها.

لم تجد أمى أمام كلمات والدى الحاسمة، ورغبتى الملحة فى السفر إلا أن تفرك كفيها كعادتها، وتلوذ بالصمت، مغلوبة على أمرها، شدت على يدى فى فتور.

ركبت قطار الثانية عشرة، جسلت بجوار الشباك مباشرة.. فى البداية تحرك القطار ببطء، رويدا رويدا أخذ يزيد من سرعته، محدثا اهتزازات رتيبة، جاورنى فى المقعد شاب، راح يحك فخذه بفخذى بقصد وبلا قصد فسخن جسدى، وركبنى الارتباك.. على المقعد المقابل جلس رجل وزوجته، بينهما طفل راح يشابى على كل شىء.. على بعد خطوات حط بائع صندوقه، وراح ينادى على بضاعته بصوت منغوم ممطوط.. كلما توقف القطار فى محطة ازداد الزحام، تكدست الحقائب، القفف، والسلال من كل حجم ولون فى الطرقة، فوق الأرفف، بين المقاعد .. تداخلت نداءات الباعة ومشاجرات الركاب وصيحات الشحاذين.. دوامة لا تهدأ قذفت برأسى هنا وهناك.. ركبت هذا القطار عشرات المرات، ولكنى شعرت بأننى أركبه للمرة الأولى، انتهز الشاب تكاثف الزحام فازداد التصاقا بى،

تململت فى جلستى وزفرت زفرة فتزحزح بضعة سنتيمترات ، ثم زغر لى وقام مبتعداً فى صمت، جلس مكانه رجل عجوز، وضع طرف عصاه المعقوفة تحت ذقنه المدبب، وراح يجيل بصره من خلف زجاج نظارته الطبية فيما حوله. نظرت الوجوه حولى فاجتاحنى إحساس طاغ بالغربة، ووددت أن أصل إلى قريتنا فى أسرع وقت.. حينما هدأ اللغط قليلا ، وخف الزحام أخذ العجوز يقلب صفحات الجريدة فى صمت غاضب : «إسرائيل تخل بإتفاقيات السلام.. هجوم وحشى للجيش الإسرائيلى على قرى الجنوب اللبنانى .. حملات شرطة القاهرة على المناطق العشوائية تسفر عن مخالفات جسيمة»، هربت بنظراتى إلى الخارج عبر نافذة القطار، فرأيت حقول البرسيم وغيطان القمح والفول والحلبة ، تمتد تلامس نهاية الأفق فى روعة آسرة.

على الزراعية أنزلنى سائق الـ «تويوتا» ذات الكبود الزيتى وأناسا لا أعرف أغلبهم.. عند مشارف القرية استقبلتنى الشمس وهى تبدأ رحلة الغروب... رحت أنظر قرصها الذهبى، وهو يظهر حينا، ويتخفى أحيانا خلف سحب داكنة ذات أشكال خرافية غريبة.. ورذاذ خفيف أخذ يداعب وجهى فأفسد مكياجى، وبلل شعرى.. قدماى تعرفان جيدا المشاية الموصلة إلى قريتنا... آثار حوافر بهائم علي التراب المختلط بروث الماشية

ورذاذ المطر، تتداخل وتتشابك مع أقدام آدمية حافية طبعت اتجاهات سيرها.

سرت بخطا متمهلة بيدى اليمنى الحقيبة، وفى اليسرى ميدالية المفاتيح .. بعد قليل صافحت عيناى شجرة التوت العجوز ، رابضة عند مدخل القرية مثل حارس يقظ، فشعرت بالونس وتذكرت أيام نقاوة الدودة والخولى عبد الله سيد أحمد، وعود التيل الذى كان يلهب به ظهورنا الغضة، شقاوة ساعة القيلولة، وسرعان ما انثالت الذكريات، فقفزت إلى ذاكرتى صورة بنوتة صغيرة تركض فرحة والأطفال فى شوارع وأجران القرية، وهى تصيح وتبدل الراء لاما : «يا نطله لخى لخى على قلعة جوز بنت أختى.. عيب عليك يا شتا والشمس طالعة منبته..» تخرج لسانها الصغير وتلعق قطرات المطر المالحة، ولا تهمد حتى تبتل ثيابها.. رويدا رويدا تقترب دور القرية الطينية الواطئة، تنظر لى بعيون عوراء.. تأخذنى فى أحضانها الدافئة، فتنداح فى نفسى مشاعر حلوة، وتطوف بخاطرى طموحات قديمة ساذجة فأبتسم.

أمام باب دارنا بشارع داير الناحية توقفت بشكل آلى، وكأن الخطوات لكفيف قد حسبها... وضعت الحقيبة بين قدمى على الأرض.. أدخلت المفتاح فى ثقب الكالون فلم يتحرك لايمنة ولا

يسرة.. يبدو أن القلب أصابه الصدأ مثلما أصاب قلب فتاى هناك.. أخذت أبلل أسنان المفتاح بريقى، وأحاول المرة تلو المرة بلا جدوى، حتى رأتنى جارتنا أم الخير واقعة فى حيص بيص، فأحضرت قليلا من الكيروسين ممتزجا بالزيت، طست به ثقب الكالون بعد أن غمست فيه المفتاح، نزلت سيور من المزيج على الباب، بدت كثعابين انزلقت من جحورها ، حركت المفتاح فانفتح الباب، محدثا صريرا حادا، وحينما وقف تنفس الصمت فى أرجاء الدار... تردد فى أذنى صدى لمطلع موال قديم: «أنا اللى بكانى، وخلى قلبى مناخل، خلو الأعتاب من الأحباب، وأنا داخل» .

وسرعان ماتسللت إلى أنفى روائح نتنة، راحت تهاجمنى كتل الهواء المحبوس، تخنقنى، بسرعة رددت الباب ورائى بعنف، بدأت أفتح الشبابيك بسرعة، فعربدت رياح خفيفة رطبة فى جنبات الدار، أخذت تثير الغبار، تمزق خيوط العنكبوت فى الزوايا والأركان.. أجلت بصرى فى المدخل المسقوف، تقع على جانبيه أربع حجرات، فحطت نظراتى على قياس من السمار، مفرودا فوق مصطبة وسط الدار، وابور جاز قابع فى أحد الأركان ، وبجانبه عدة الشاى، قلة قناوى وإبريق فخارى أسود، طبلية كالحة اللون مسندة على الجدار، ويلى باب الوسط فى

بداية الحوش المكشوف طلمبة المياه، أمامها حوض من الأسمنت جف، وفقد اللمعان، على بعد خطوات تعريشة من الساسابان وأعواد الحطب الجاف دب فيها السوس ، تغطى جانبا من الحوش، تقابله زريبة مسقوفة بجذوع النخل والجريد، كانت تحوى بقرة وجاموسة وحمارا زمان، وبالقرب من بابها لايزال يوجد دولاب الكرار كابى الألوان.

أما الحجرة الوحيدة المستعملة فى الدار ففيها سرير بعمدان، فقد عساكره، فوقه مرتبة رثة وملاءة قذرة ولحاف مبرقش بمخلفات البراغيث، تحت السرير أجوله أرز، طست نحاس، حلل ألومنيوم وأطباق صاج ، على الحائط بعيدا عن الشباك الوحيد لمبة نمرة عشرة، زجاجتها مغبرة بالسواد، على يمينها ثبتت مرآة مضببة محبش حولها بالطين، وعلى يسارها برواز عتيق، يضم صورة لجدى فى شبابه، متآكلة الأطراف، وبموازاة السرير فُردت حصيرة خمسة أذرع، مازالت تحتفظ ببعض النقوش رغم مرور السنين.

بعد أن استرددت أنفاسى، أغلقت باب الحجرة وشباكها.. خلعت ملابس السفر، علقتها على مسمار مرشوق خلف الباب، ارتديت جلبابا قديما على اللحم، أمسكت بمقشة من اللوف.. كنست الحجرة ووسط الدار، حضرّت مياه طلمبة اليد وشغلتها،

مـلأت القلة والإبريق، عمّرت اللمبـة ووابور الجـاز... رشـرشت الحجرة والمدخل بالماء والفنيك.. وضـعت الطست وراء السـرير «أبو عـمـدان» أحكمت رتاج باب الحـجـرة من الداخل، ورحت استحم ، ففاقت مفاتن جسدى وانتعشت، راحت تكشف عن مكنوناتها الخبيئة لأول مرة، فتجرأت وحدثتها حديثا خاصا ممتعا، ثم عاودت الاستحمام ، لبست ملابس البيت النظيفة.. فتحت الباب، ورشرشت ماء الحموم قدام الدار، فتولد فى داخلى إحسـاس مبهج.. طاغ، يؤكد لى أن هنا.. فى دارنا حـياة.. حياة بلونها الأصيل.

(يونيو ١٩٩٧م)

سَفرُ الرّوح

هل سافرت..أم الحب هو الذى سافر؟!... إحساس فريد بالفقد والوحدة يجتاح نفسى.. نفسى التى عانقت أنفاس حبيبتى العطرة فشفت وخفت ، وراحت تمتزج وتمتزج حتى صرنا روحا واحدة.

ماذا أفعل، وأنا وحيد بعيد، يسكننى حب غامر، لا تلمس قدماى أرضه، ولا تطول يداى سماه؟!... ماذا بعد هذه العلاقة التى أصبحت كوشم فوق روحى، وتغلغلت فى كيانى ،وصار فراقنا هو الموت بعينه؟.. ماذا أفعل، وخواطرى تسجننى.. تجلدنى بأغصان من الورد؟

عبق اللقاء الأول لايزال يجدد دمى ويعطر روحى.. نعم ظل كل منا يغالط مشاعره، ولكن الإحساس الصادق تغلب فى النهاية.. ظل يناور قلبينا حتى مكن «كيوبيد» الجميل من رشق سهمه فى حبة القلب الظمآن.. تلامست الأنامل فابتهجت الدماء فى العروق، وحلقت الروح فى عالم عزفت فيه الموسيقا أعذب ألحانها.وأخذت دفقات البوح تفتح مغالق الجمال والسحر،

وتملأ الدنيا بأبهى الصور، رسمت الآمال عمرا جديدا ، امتد جميلا ، لاح فى آفاق طهرتها مياه المطر.. رأيت العالم يأكل من طبق واحد، والمحبة والجمال يرفرفان فوق الرءوس، وينتشران فى آفاق البيوت والحقول... هاهى ذى كل الوجوه مشرقة.. كل العيون متلألئة.

ماذا تقول، وعينا حبيبتك الساحرتان تلاغيان، تحرضان، تعطيان فيضا من حنان ، يبذله قلب عاشق؟!.. ماذا تفعل، وحبيبتك بعيدة، وأنت هنا وحيد؟!.. لابد أن تستعطف خواطرك، تسرج قناديل المخيلة، تركب قطار الذاكرة وترحل إلى البعيد.

هل قلت : إنك سافرت؟.. لا أعرف إن كان قد تم ذلك فعلاً.. أم هو نسج خيال، صنعه خوف عاشق، يهفو إلى ارتشاف قطرات حب صاف صادق، بحث عنه طويلا بين ركام الأيام.. إننى أراك تتجددين كل لحظة مثل الحياة.. ألم أقل لك ذات يوم: أنت الحياة..

فى اليقظة والنوم دائما معى، فى المنزل أدعك على مقعد الفرح، تنعمين بلحظة سعادة آملة.وأنزع نفسى من دفء جوارك على أطراف أصابعى.. أتوضأ من بحر عينيك، وأصلى للوهاب شاكرا فتمتد الأيام خضراء مزهوة.

على المائدة تضع أختى كوبا يجاور كوبى، وتبتسم فى

تخابث.. أسكب أحدهما على الأرض لترتوى الملائكة، فأنت كالملائكة..آه .. إننا كبشر مطاردون دائما إلى أن تصرعنا شهقة الموت، فى تلك اللحظة نتأكد أننا كنا أسرى لسراب خادع، امتد بطول العمر، دون أن نفكر فى تطهير أنفسنا، أو ننطلق نحو عالم نورانى، عالم يسعدنا رغم الفقر والقبح والصراع الذى يضج به عالمنا.. متى نتحرر من أشياء كثيرة تلهب ظهورنا ، وتمتص رحيق أيامنا قطرة.. قطرة.

أنت هنا أم هناك؟!.. سؤال يبدو ساذجا، ولكنه يناوش رأسى، ويقلق نومى كثيرا.. يجعل نفسى تسائل نفسى.. لماذا انقطعت رسائلك؟!.. هل ضاع كل هذا الحب؟!... أم سافرت الحبيبة؟.. هل غرسنا مشاعرنا فى أرض جدباء؟ .. حين تصالحيننى تصالحنى أيامى، فيحدث التوازن ، ويتحقق الانسجام وعالم، يصر أن يمارس سطوته الراغمة فيحاصرنى فى زاوية ضيقة خانقة.

ماذا أفعل، وقد انشطر قلبى، نصف لوجه حُفرت ملامحه على بؤبؤى عينى، ونصف لقرية أتدثر فيها بود الأصدقاء والأهل؟!.. أنت هنا أم هناك؟ لقد غامت الرؤى.. أجيبى ولا تراوغى، فأنا مهموم بما خفى على العيان، مذبوح دون قطرة دم، أسير بلا أسر، مقيد، ويداى طليقتان، تتحركان فى مجهول

لايحد. أنت هنا وجود يتحدث .. فى انتقاء هداياى.. فى لوحات «الكنافاه» التى طرزتها أناملك الرقيقة كأجمل ما يكون، تنم على روعة إحساسك، ودقة اختيارك للألوان وتناسب الفراغات..أراك على جدران حجرتى تنظرين إلىّ وتبتسمين، نبضات قلبك تجاوب نبضات قلبى.. وضحكتك تفيض دلالا وأنسا، رشاقة خطاك.. حفيف ثوبك.. الحقيقة رقتك تأسرنى.

أنت هناك ظل شاحب.. جسد يتحرك بلا حماس.. تمارسين حياة لا تعيشنها.. تنهضين من نوم متقطع.. تتحركين فى المكان بلا هدف، تنزعين ورقة اليوم الفائت من نتيجة الحائط، تلقينها فى سلة المهملات، وأنت تهمسين لنفسك بجملتك المشهورة فى أسى: «العمر شجرة تساقط أوراقها»، نعم شاعر أنا بك، وبما يمارس عليك من ضغط قاس فى بلد تحسب فيه الأيام بأرقام أرصدة البنوك ..أرقام براقة تستحث طمعا شرها، يحول أحلى أيام العمر إلى صحراء جرداء، ولحظات ممتدة من الركض اللاهث خلف ظلال هاربة.. مخادعة.

إننى أتساءل حائرا: أمازلت غيمة تعانقها الرياح لتمطر الأرض، فتتبرعم الأشجار، تترعرع الحقول، وتنبت السنابل كعكة للجياع، تمنح الناس فاكهة حلوة، تطرد المرارة من الحلوق؟.. أمازلت لغة جديدة تدهشنا مفرداتها .. روحا طليقة تحلق فى

البعيد، وتستحلب للناس كؤوس المحبة والصفاء؟... وجودا يمنح الحياة معناها؟... عيونا نرى بها سر الجمال وخفايا النفوس.. آه .. تجلدني خواطرى فتمطر عاصفة ذكريات أثيرة لحكايات.. ومطارح .. ولحظات يستحيل وصفها.. أمازلت كما كنت؟!

ربما تكونين هناك جسد بلا روح.. وهنا روح بلا جسد أشعر أن روحك الحلوة، وتجليات حضورك الشفيف دائما معى فى عناق.. وحينما يكوينى الشوق أسترضى الصبر أن يسكننى، فيأبى، أرجو اللهفة أن تهدأ فتزداد اشتعالا .. منجذب دائما إليك فى حالتى الحضور والغياب ، شوقا لمن وسدتها قلبى قبل عينى. هأنذا يدب الخدر فى قدمى، وأنا أقف فى انتظارك.. أراك دائما عبر الرؤى تلوحين.. وتمازجين روحى.. ألم أقل لك ذات يوم : إننا وصلنا مرحلة التوحد؟.. لست صوفيا، ولكن لن أكشف مستور حبى إليك يقولون«إن الصوفى إذا كاشف جُن».

(يناير ١٩٩٧م)

صدر للمؤلف

١- «السيف.. والوردة» مجموعة قصص قصيرة- يوليو ١٩٨٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب (نفدت)

٢- «السمر ذوو العيون الذهبية» قصص قصيرة مختارة - مترجمة عن الانجليزية - يناير ١٩٩٤م الهيئة المصرية العامة للكتاب (نفدت)

٣- «الجدة حميدة» مجموعة قصصية - مايو ٢٠٠١م سلسلة «الكتاب الفضى» التى يصدرها «نادى القصة» بالقاهرة.

*** قيد الطبع:**

١- أوراق .. ومسافات «قراءات فى الأقصوصة المصرية المعاصرة»- كتابات نقدية- الهيئة العامة لقصور الثقافة.

٢- إطلالات نقدية على القصة القصيرة المعاصرة .

الفهرست

شركة الأمل للطباعة والنشر